الافتتاحية

حضـــارة العـراق

بقلم:
ـ د.نادية خوست ـ

يذكّر احتلال بغداد سنة 2003 بالاجتياح المغولي سنة 1258. فكلاهما لم يقصد احتلال الأرض فقط بل قصد تدمير الحضارة. الفرق بين الغزو البعيد واحتلال الأمس، أن العلماء والباحثين كشفوا للعالم في القرن الماضي مهد الحضارة الإنسانية في بلاد مابين النهرين، وقدموا شواهد عليها بالأبحاث التي نشروها واللقى التي عرضوها في متاحف العالم. وكانت تلك الشواهد منحوتات وحليا وقوانين وأساطير محفورة في الحجر والطين. هزّ اكتشاف ملحمة غلغاميش الباحثين. ففيها وجدوا الطوفان وأسطورة الخلق وتبينوا أن التوراة نقلتها عنها. ويستطيع مناهضو الصهيونية اليوم أن يبحثوا اختلاق أحبار اليهود أساطير التوراة في أيام السبي البابلي مفيدين من حضارة مابين النهرين العظيمة.

نُقل كثير من آثار العراق خلال التنقيب إلى أنحاء العالم. ويفيدنا أن نتذكر أن لورنس بدأ مهماته في البلاد العربية بالتنقيب عن الآثار، ومثله غرترولد بيل. من مقتنيات متحف فيلادلفيا اليوم حلي ملكة اور التي تدهش المتفرج بالمهارة التي وصلت إليها الفنون وارتقى إليها الذوق والبحوث الجمالية في حضارة العراق القديم. ويعرض متحف برغامون

في برلين بوابة عشتار التي توقف الزائر ذاهلا أمام ضخامتها وألوان آجرّها المزجج وثيرانها المجنحة.

لكن الخطر الذي يجرف آثار حضارة مابين النهرين تجاوز في نهاية القرن الماضي نقل القطع الأثرية إلى متاحف العالم. فالتجارة بالآثار أصبحت أعمالا تقوم بها عصابات عالمية مختصة، تسلب الإنسانية ذاكرتها الحضارية. وقد سهل الحصار ثم سهل احتلال العراق لهذه العصابات أن ترتكب جرائمها فتقتلع شواهد حضارات عمرها آلاف السنوات من سياقها التاريخي، وتنتزعها من وطن الإنسان الذي أبدعها، وترحّلها خارج بيئتها. وليست هذه الجرائم موجهة فقط إلى حق الشعب العراقي في تاريخه الحضاري، بل موجهة ضد الوعي الإنساني لأنها تمنعه من استنتاج مسار الفكر الجمالي والفني والمعماري في أقدم حضارات الأرض في أول مدن الإنسان، وتجعل القطعة المقصوصة من لوحة حجرية تفصيلا فقد مكانه في تصميم اللوحة، وفي مسار التعبير العام. فتحرمه من فضائه كجزء من كنز حضاري إنساني لتجعله زخرفة في مجموعة خاصة.

يعرف من زار متحف بغداد أصول الشواهد الحضارية التي تزين متاحف العالم كمقتطفات. ويقرأ فيه مسار حضارة في سياقها ووطنها. ويستنتج صلتها بالحضارات التي تلتها، وتجلّيها في تفاصيل الحياة اليومية العراقية. ويكتسب، كمثقف أو عالم أو فنان، متابعة بدايات المعارف الإنسانية. فيتبين أصول دراسة المثلثات، وحساب قطر الدائرة، وعلم الفلك، وأول القوانين الإنسانية، وتأملات الفنانين في علاقة الفنون بالحياة وهواجس الإنسان، وصياغة أعمال النحت الكبرى والمنمنمات الذهبية والعاجية. ويعجب من قدرة اولئك الفنانين القدماء على التعبير

البليغ في الأحجار الضخمة وفي أصغر قطع الذهب والعاج والطين. وتشهد المدن القديمة المكتشفة والمرممة مثل بابل ونينوى وسامراء وآشور على عمارة فريدة شيدتها حضارة راقية في ذوقها الفني وفي فهمها المناخ والبيئة، متمايزة بين الجنوب والشمال. وامتدت في ذلك المسار عمارة المدن العربية الإسلامية التي تجسدها مدينة المعتصم وبحيرة المتوكل، التي لم يفها أي شعر حقها، والمئذنة الملوية التي ماتزال حتى في عصرنا نموذجا للتجديد، والقصور العباسية.

استمرت حضارة مابين النهرين القديمة في وريثتها العربية الإسلامية. وقد عرضت ندوات بيت الحكمة العباسي كيف حفظ العرب العلوم التي نقلها اليونان من حضارة مابين النهرين وترجموها فسهلوا لاوروبا أن تفيد منها في نهضتها المعاصرة. وماتزال البوابات واسعة للبحث في علاقات الحضارات القديمة، وإشعاع حضارة مابين النهرين على العالم القديم كله، وتقصي هواجس الإنسان وتأملاته في الحياة والموت والقدر والحرية في أدب مابين النهرين القديم، وكشف علاقة الفن بالتفكير الفلسفي في تلك الطفولة الإنسانية النضرة الممتدة على آلاف السنين قبل الميلاد.

وتستوقف المتأمل إشارات إلى ذلك العمق الحضاري في الروح العراقية المعاصرة. منها حرص العراقيين على جمع المخطوطات والكتب، وتقدير الآثار وترميمها. يعبر عنه أن سوق العراق من أكبر أسواق الكتب العربية، كما يعبر عنه الأسى الذي كان يعلنه العلماء والمختصون خلال الحصار لأنهم محرومون من المواد التي تساعدهم على حماية تلك الثروة الفكرية.

منع الحصار مئات الآلاف من البشر من الاطلاع على تراث الحضارة الإنسانية في العراق، وكان هذا نفسه خرقا لحقوق الإنسان. وكان للعرب أكثر فداحة لأنه قطعهم عن التراث المعماري والفكري العربي وتجسيده الحي في آثار العمارة العربية الإسلامية التي كانت حضارة عالمية في تلك القرون المشرقة بالمعارف الإنسانية!

خلال مايسمى بحروب الخليج نهبت المتاحف العراقية. وقدم العراق لليونيسكو قائمة بالآثار المفقودة واستعاد مئات منها. لكن نتائج تلك الحرب كانت مأساوية على الآثار العراقية. فالمناطق التي سمتها الولايات المتحدة مناطق حظر جوي كانت، عمليا، مناطق خارج السيادة العراقية. جهد الأثريون العراقيون لحماية المواقع الأثرية في الجنوب. واستعجلوا التنقيب فيها ليسبقوا لصوص الآثار. عرفوا أن العصابات العالمية تسجل رغباتها في قوائم فيجتاح اللصوص المواقع الأثرية وتندثر خلال التنقيب الهمجي، آثار لاتقع في القائمة المطلوبة. ألا نستطيع في خيالنا أن نقارن الدقة التي يحتاجها المنقب عن الآثار وهو يزيح الغبار والتراب بفرشاة، بالعجلة التي يجرف بها اللص طبقات يراها علماء الآثار أدلة بليغة على عصور إنسانية؟!

أما في الشمال فكان تجار الآثار يعملون في حرية. وكانت آثار حضارة مابين النهرين ترحل في أمان إلى المجموعات الفردية والصالات العالمية.

لكن استباحة المتاحف العراقية في أول ايام الاحتلال الأمريكي سيبقى في ذاكرة الإنسانية عدوانا مخجلا. وهو مادفعنا إلى التحضير لهذا العدد الخاص عن حضارة مابين النهرين ونهب آثارها، ومن ينكر صلة جوانب الثقافة أحدها بالآخر! وسيطلع القارئ على جهد الأثريين

العراقيين لإنقاذ كنوز وطنهم قبيل الحرب، وعلى وجعهم من الكارثة، وعلى جهدهم الآن لاستعادة المنهوب والمسروق! وسيقرأ شهادة فيسك وشهادتهم على موقف المحتلين المتفرج أو المتواطئ.

قدم العلماء والمثقفون الفرنسيون في التسعينيات من القرن الماضي دراسة عن أثر القصف الأمريكي على الآثار العراقية. وبينت الصور تشقق الأبنية التاريخية. ونبه المختصون وكبار المثقفين والكتاب في العالم، قبيل غزو العراق، إلى خطر الحرب على التراث العراقي الذي يعني الإنسانية كلها. وكان ذلك الصوت العلمي من أصوات ملايين البشر الذين رأوا في العراق شعبا حيا صابرا وحضارة عريقة. وحاولوا أن يمنعوا خرق القانون الدولي، وأن يحموا العالم من سيادة قوة عسكرية ضارية. لكن الغزو الذي لم ير غير أكبر احتياطي للنفط في العالم في العراق، فاستهان بالتصويت العالمي واجتاح العراق. لم يرم المخطوطات في دجلة لكنه رعى حرائقها. فشاهدنا اجتياح المؤسسات العلمية الجامعية، وحرق مكتبة الأوقاف التي تخزن مخطوطات نادرة، وحرق دار الحكمة العباسي الذي أصدر كتبا عن تاريخ العراق وحضارة مابين النهرين واستضاف مؤتمرات عربية، ونهب المكتبة الوطنية الثمينة. وسيطلع القارئ في هذا العدد من الآداب الأجنبية على تقارير عن نهب المتاحف العراقية.

يؤكد هذا أن الهوية الوطنية تقع وسط الصراع العالمي بين حقوق الشعوب في الهوية الثقافية، واجتياح العولمة. ولنا، تقع وسط الصراع العربي الصهيوني. فالصهيونية التي غرست دولة حملت لها مستوطنين غرباء من أنحاء العالم، جهدت بالتنقيب عن الآثار كي تسندهم بعمق تاريخي. واخترعت أساطير تبرر احتلال فلسطين التاريخية لتدعي عمقا تاريخيا. مع أن يهود الخزر غرباء، على كل حال، عن المنطقة كلها.

التقى مشروع المحافظين الجدد الصهيونيين، الذين يحكمون الإدارة الأمريكية، للسيادة على العالم باحتلال نفط الخليج، بالمشروع الصهيوني للسيادة على المنطقة. فقفز المشروع الصهيوني للسيادة على الأرض العربية من النيل إلى الفرات، إلى مرحلة خطرة باحتلال العراق. في هذه الخريطة الجديدة التي تصاغ للعالم ولمنطقتنا، نقرأ نهب المتاحف والمواقع الأثرية العراقية، واكتشاف القطع الأثرية المهربة إلى إسرائيل. وسنلاحظ في تقرير كتبه الدكتور فاروق اسماعيل لهذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية، غياب الباحثين العرب عن مؤتمر لندن للدراسات الآشورية، وحضور الإسرائيليين. ويجب أن نتوقع، إذا استمر استسلام العرب للغزو الأمريكي، أن تؤول حضارات المنطقة تأويلا تلموديا، وأن تزوّر الحقائق التاريخية. وينبهنا هذا إلى ضرورة مشروع واسع مؤسس على رؤية استراتيجية، يعد خبراء في لغات حضاراتنا القديمة ومؤسسات تنشر تراثها، وبرنامجا يربي تلاميذنا على فهم الاستمرار الحضاري وعلى معرفة الآثار وزيارتها. وسيؤهل ذلك، في السياق، لتربية فنية وفكرية تستلهم التراث الوطني العريق وتفهم من شواهد الحضارة أن التجديد كان دائما موجودا كضرورة روحية وواقعية، فردية وجماعية، لكنه كان مستمدا من الصلة الحية بالإرث الحضاري الوطني لامن غزو طارئ يفرض رؤيته. كما سيساهم ذلك، لو تحقق، في فهم مدى من العلاقات بين الحضارات القديمة.

كنا نتمنى أن يكون هذا العدد عن حضارة مابين النهرين أكثر غنى. وأن يساهم فيه أثريون عراقيون. كما تمنينا أن تكون فيه أكثر من مادة عن العمارة العباسية. لكن مثل هذا المشروع يستلزم مختصين وتحضيرا طويلا، وذلك لم يتوفر لدينا. إلى هذا أردنا أن يظهر عدد الآداب الأجنبية المكرس لحضارة مابين النهرين في وقته. لكننا نفترض

أن ترجمة التراث القديم تقع في مشروع ترجمة الآداب إلى اللغة العربية. ونتمنى أن ننشر تلك الآثار الحضارية في أعدادنا المقبلة.



إلى القراء الكرام

على من يجد في نفسه الكفاءة والقدرة على ترجمة مختارات من الأدب العربي إلى اللغة الفرنسية أو اللغة الإنكليزية مراجعة هيئة تحرير مجلة الآداب العربية/ الآنسة ميرنا أوغلانيان/ لتكليفه بترجمة المواد المعدة للنشر في المجلة بإصدارها الفرنسي أو الإنكليزي.

تعميم:

يبدأ محاسب صندوق التقاعد بتسليم شيكات المتقاعدين عن عام 2004 بدءاً من صباح يوم السبت 2003/12/20 وفق الآتي:

أيام السبت من الثامنة صباحاً حتى الثانية ظهراً

أيام الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء من الواحدة ظهراً حتى الرابعة من بعد الظهر.

يرجى من السادة المتقاعدين التقيد بالضوابط الآتية التي لا يتم تسليم الشيكات دون الأخذ بها:

1- يتم تسليم الشيكات حصراً للعضو المستفيد أو وكيله القانوني.

2- تقديم إخراج قيد حديث للعضو المستفيد مع البطاقة الشخصية.

3- تقديم إيصال تسديد رسوم وفيات عن عام 2003 تسدد أصولاً لأمين صندوق الاتحاد السيد سلام مراد.

رئيس مجلس إدارة
صندوق تقاعد الكتاب العرب
د. علي عقلة عرسان

نداء

من الأمين العام للأدباء والكتاب العرب
حول
نهب التراث الحضاري في العراق وتدميره

نتوجه بندائنا هذا باسم الأدباء والكتاب العرب في الوطن العربي وباسم من يعنيهم التراث الثقافي والحضاري للعرب والعالم، إلى المدير العام لليونيسكو، والمدير العام لمنظمة التربية والثقافة والعلوم في منظمة دول العالم الإسلامي "أسيسكو"، والمدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" ألكسو"، بحكم مواقعهم ومسؤولياتهم للقيام بواجب مؤسساتهم في حماية آثار العراق وما تبقى في المتاحف منها بالسرعة الكلية، والعمل على استعادة ما تمت سرقته من تلك الآثار، وإدانة هذه الجريمة النكراء بشدة، وتحميل المحتلين الأميركيين والبريطانيين المسؤولية عن إباحة آثار العراق وسرقتها وتدميرها بوصفهم مسؤولين عن حمايتها حسب القوانين والاتفاقيات الدولية وعلى رأسها اتفاقيات جنيف. ورفع الدعوى لمحاكمة المسؤولين منهم أمام المحاكم الدولية عن جرائم تدمير الإرث الحضاري العظيم في العراق لاسيما في متحفي بغداد والموصل.

كما نطالبهم برصد ومتابعة انتقال الآثار العراقية وتهريبها وبيعها في أي مكان في العالم للعمل على إعادتها للعراق.

وندين القوة الغازية (الأميركية والبريطانية) المحتلة لعدوانها على العراق وما تسبب ويتسبب به ذلك العدوان من كوارث ودمار وجرائم وفوضى عارمة عمت العراق كله وألحقت الكوارث بشعبه، ونطالبها بالانسحاب الفوري، ونحملها المسؤولية التامة عن تدمير المؤسسات العراقية والجامعات والمشافي والمتاحف والمكتبات العامة والمراكز الثقافية.

ونؤكد على مسؤولية كل من يعنيه التراث الحضاري أو يملكه، وعلى حق كل من يعنيه الشأن الإنساني ويؤلمه، في محاكمة المسؤولين الأميركيين والبريطانيين أمام المحاكم الدولية المعنية عن الجرائم المرتكبة بحق العراق وشعبه وحضارته. ونناشد المثقفين والمعنيين والمهتمين بالشأن الإنساني والحضاري والثقافي في جميع أنحاء العالم بالعمل على إدانة هذه الجريمة وإيقافها، والوقوف إلى جانب العراق في محنته، والمطالبة بانسحاب القوة الغازية من أراضيه فوراً.

دمشق في 2003/4/13

الأمين العام

للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

د. علي عقلة عرسان



دلالات العدوان على الجذور الحضارية للعراق

■ بقلم: د.خالد الناشف * ■

العدوان، الذي وقع على المؤسسات الحضارية في العراق بعيد سقوط بغداد في التاسع من نيسان، عدوان ليس له مثيل في التاريخ الحديث. ويبدو الأمر وكأنه محاولة لإلغاء الهوية القومية، التي عمل العراق على تعميقها في العقود الأخيرة كجزء من عملية بناء الدولة الحديثة. فقد أجمع الكثيرون على أن هذا العدوان كان مقصوداً مما يطرح تساؤلات حول دوافعه، التي ربما كانت تكمن في المخزون الحضاري لكل من المعتدي والمعتدى عليه. فهل في حضارة العراق ما يشكل عناصر قوة استدعت مجابهتها اليوم على هذا النحو من التدمير المنظم. وكيف يمكن أن يؤثر الماضي على سياسة انتهت بعدوان واحتلال. وكيف يمكن ربط ماضي العراق بحاضره في محاولة لتفهم ما حصل.

قديماً، كان عراق وادي الرافدين يشكل وحدة حضارية بين شماله بمركزه في نينوى، الموصل حالياً، وأقصى جنوبه بمدنه الكبرى، كاريدو (تل أبو شهرين)، وأوروك (تلول الوركاء)، وأور (تل المقير). لم تخل العلاقة بين الشمال والجنوب من الصراع، وإن تغلب عليها بشكل عام الانسجام الحضاري المعتمد على المصالح المتبادلة. بدأت مسيرة الحضارة العراقية من الشمال، الذي انطلقت منه أولى المجتمعات الزراعية. فبين أطراف البادية وسفوح جبال الشمال العراقي ظهرت في

* مختص في المسماريات وحضارة ما بين النهرين.

الألف السادس قرى زراعية متطورة عرفت أولى البيوت البشرية المنظمة وفائض الإنتاج والملكية الخاصة، كما في تل حسونة، إلى الغرب من الموصل.

واللافت للنظر أن هذه القرى تركزت في محيط نينوى نفسها، وكانت المسافات بين القرية والأخرى قصيرة، لا تتعدى أحياناً بضعة كيلومترات، مما يشير إلى وجود روابط بين هذه القرى، ويدفع إلى الاعتقاد بأن نينوى كانت تمثل المركز الإداري لهذا التجمع.

امتدت هذه الإنجازات، الحضارية باتجاه الجنوب، وفي بيئة أقل ملاءمة للزراعة الموسمية، كما في تل الصوان الواقع في محيط مدينة سامراء العباسية، وهو ما شكل حافزاً لمد الأقنية من نهر دجلة. ويمكن تسجيله كبدايات الزراعة المروية، التي ستصبح فيما بعد السمة المميزة للمدن السومرية. وفي نهاية الألف الخامس انبثق عن مجتمعي حسونة وسامراء حضارة جديدة طورت أساليب صهر النحاس، وقد وصل إنجازا الري وصهر النحاس إلى جنوب العراق، أي إلى ما أصبح يعرف فيما بعد باسم سومر، عبر مناطق إلى الجنوب الشرقي كمندلي والأهواز.

يمكن القول، إذن، إن التطور الحضاري للعراق القديم، الذي انطلق من الشمال قد استقر في أقصى الجنوب في الألف الرابع في فترة سبقت مباشرة ظهور المراكز المدنية في الجنوب. أما في الفترة الحاسمة لتطور المدن في نهاية الألف الرابع، فقد بدأت تتبلور ملامح هيمنة اقتصادية حضارية للجنوب على مناطق شاسعة ضمت الشمال وتخطت حوض وادي الرافدين. هذه الهيمنة عكست أيضاً حاجة سومر إلى المعادن، كالنحاس، الذي كان يوجد في شمال سوريا أو عُمان، والقصدير، الذي كان يوجد في أفغانستان. ومن خليط هذين المعدنين يتكون البرونز، الذي تصنع منه الأسلحة والأدوات، وبعض البضائع الاستهلاكية، كالرأس البرونزي الشهير لملك أكدة، وهي قطعة ذكر أنها تعرضت للنهب من المتحف العراقي.

ورغم عدم وجود أدلة على استيراد القصدير في وثائق أوروك، وهي أقدم الوثائق الكتابية فإن الكثير من النصوص الآشورية من حوالي الألف الثاني، التي عثر عليها في الأناضول، تؤكد أن طريق القصدير كان يمر عبر أشور في الشمال ليصدر إلى الدويلات الأناضولية، التي كانت هي أيضاً بحاجة إلى هذا المعدن لعدم توفره في مناطقها.

تشير وثائق أوروك إلى استيراد النحاس من دلمون، وهو الاسم الذي كان سكان

وادي الرافدين يطلقونه على منطقة الخليج العربي ككل، والإشارة هنا هي لمناجم النحاس في عُمان.

أما الحاجة إلى الأحجار الكريمة، كاللازورد، فتعكسها بشكل واضح ملحمة "إنميركار وسيد أراتا" السومرية، التي تصف الجهود الحثيثة لمدينة أوروك للحصول على هذه المواد من مملكة أراتا، التي تقع إلى الشرق، في إيران أو ربما أبعد في أفغانستان. كانت العلاقات الاقتصادية وراء التأثيرات الحضارية الرافدية، التي نشهدها بشكل واضح في بلاد الشام، إيران، وشرق الجزيرة العربية. والأمثلة على التأثيرات الحضارية السومرية كثيرة، أحدها قريب من مكان اجتماعنا اليوم، في إيبلا، التي استخدمت أيضاً الخط المسماري في الكتابة، كما استخدمت في التعبير السومرية والأكدية، كلغتي الحضارة المهيمنة.

في إشارة إلى بداية التاريخ والمؤسسات الاجتماعية بعد انحسار الطوفان، كما جاء في المرويات السومرية، أصبحت أوروك في الأيديولوجية السومرية، المدينة الأولى، التي أنزلت الآلهة فيها المُلك، وذلك مع نهاية الألف الرابع. إن القول بأن الآلهة هي التي أنزلت الملك كتبرير لظهور الملكية كنظام سياسي، إلى جانب المعبد كقوة اقتصادية، يعبر عن وعي خاص بالقوة الاقتصادية الخارقة، التي كانت تتمتع بها أوروك، المركز الرئيسي لبلاد سومر.

ويعكس ظهور الكتابة لأول مرة في التاريخ البشري الحاجة إلى تسجيل الأنشطة الاقتصادية المتنامية في تلك المدينة وخاصة بداية إنتاج البضائع الاستهلاكية على مستوى واسع. ويبقى السؤال كيف تمكنت الحضارة السومرية، وفيما بعد الأكدية، من إثبات نفسها وقيمها في مناطق نفوذها، بالرغم من اعتمادها على المواد الخام من تلك المناطق.

لقد تحققت الهيمنة السياسية المباشرة في الفترة الأكدية اللاحقة انطلاقاً من أكدة، العاصمة التي تقع في وسط العراق. وهنا يبرز جانب جيوسياسي يعكس قوة العراق القديم في الألف الثالث تمثل بتحقيق الوحدة بين الجنوب والوسط، وهو ما جاء نتيجة جهد سياسي مقصود قام به شاروكين، مؤسس الدولة الأكدية. ففي خطوة ثوروية، هي الأولى من نوعها في تاريخ الوعي السياسي، عمل شاروكين على توحيد الجنوب والوسط حالماً حقق سيطرته على أوروك. ولم يأت هذا التوحيد على حساب الإرث السومري، وهو ما يستشف من تعيين ابنته إنخيدو أنا ككاهنة في معبد ننّا في

أور، والكاهنة نفسها كانت تؤلف الأناشيد لإعلاء مقام الإلهة إنانا، إلهة أوروك، ولمساواتها بعشتار، الإلهة الأكدية، والإلهة الشخصية لشاروكين.. وعلى هذا النحو وفي خطوة سياسية فريدة من نوعها استطاع شاروكين استيعاب الحضارة السومرية. والرأس البرونزي، الذي ذكرته سابقاً، يُعتقد أنه يمثل نارام سين، حفيد شاروكين، وهو الملك، الذي ألّه نفسه في أول خطوة تأليه لملك تحصل في المنطقة.

سأناقش الآن موضوع تدمير المؤسسات الحضارية، الذي شمل المتاحف، المكتبات، والمراكز الثقافية، لا يوجد تفسير واحد للإحاطة بما حصل، خاصة وأن طبيعة هذا التدمير لم تقتصر على النهب والسرقة، ولم تكن مجرد رد فعل عفوي كما أراد الرئيس الأمريكي جورج بوش يوحي لنا. فقد رافق عملية النهب تخريب متعمد انتهى بالحرق، كما حصل في المكتبة الوطنية ومكتبة الأوقاف، أو تهشيم القطع الأثرية التي لم يتمكن اللصوص من حملها في المتحف العراقي. وحصل هذا كله تحت أعين الجنود الأمريكيين الذين لم يحركوا ساكناً لإيقاف المعتدين. ولهذا يسود الاعتقاد بأن عملية التدمير كانت مدبرة وأنها نفذت بعد تخطيط مسبق ومقصود.

يمكن النظر إلى التدمير، الذي حصل في العراق كخطوة تسبق ما سمي "بإعادة الإعمار"، أي أن هذه العملية لا بد أن يسبقها تخريب منظم، حتى يصبح للعملية جدوى اقتصادية أكبر، وخاصة بالنسبة للشركات التي ستتولى مشاريع إعادة البناء، وبالفعل حصلت شركات أمريكية على عقود للقيام بهذه المهمة. وهذا الأمر تمثل باستهداف مرفقات محددة كمؤسسات الاتصالات والكهرباء وشبكات المياه وبعض المنشآت النفطية وغيرها. وثمة حالات شبيهة معروفة حصلت في الماضي، كالتدمير الذي طال ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية. غير أن هذا التفسير لا يوضح العدوان على المؤسسات الثقافية، كالمتاحف والمكتبات، ونهبها، ثم تدميرها وإحراقها، وهي خسارة لا يمكن تعويضها على الإطلاق. لهذا ينبغي البحث عن تفسيرات أخرى بعيداً عن الدوافع الاقتصادية.

ينبغي هنا التذكير بجانبين، الأول، جيوسياسي، والثاني، حضاري. وأبدأ بالجانب الجيوسياسي. أشرت من قبل إلى الهيمنة السياسية المباشرة، التي تحققت في الفترة الأكدية انطلاقاً من أكدة في الوسط، واستمرت هذه الهيمنة في الدول اللاحقة لينتقل المركز شمالاً إلى بابل في الألفين الثاني والأول. وقد استمرت هذه الحركة حتى في فترات متأخرة، أي الانتقال إلى مركز جديد تمثل بالمدائن (اليوم

سلمان باك)، وهي تجمع لعواصم السلوقيين، الفرثيين، والساسانيين، وأخيراً في بغداد، عاصمة الدولة العباسية. وهكذا، يلاحظ نمط للحركة باتجاه الوسط في تأسيس عواصم السلالات المتعاقبة، ابتداء بالمدن الكبرى في أقصى الجنوب، ومروراً بأكدة، بابل، والمدائن، وانتهاءً ببغداد. واليوم، تشمل الخارطة الحديثة للعراق، التي جاءت نتيجة لتقسيمات سايكس بيكو، الجنوب، الشمال، والوسط بمركز ثقله بغداد، وبشكل مطابق للوضعية الجيوسياسية في العالم القديم، وبشكل خاص في فترة الهيمنة الأكدية في الألف الثالث.

أما بالنسبة للجانب الحضاري، فقد كان الوضع في وادي الرافدين في الألف الثالث يشبه في بنيته واقع الغرب اليوم، فقد كان يعتمد على المواد الخام من الخارج ويقوم بتصدير ما يصنعه منها، وهو ما يشابه الوضع اليوم بالنسبة لتصدير البضائع الاستهلاكية الغربية إلى دول العالم الثالث بكل ما تحمله من رمزية الهيمنة، كالكوكا كولا وغيرها. إن علماء الآثار ما زالوا يعثرون على زبادي أوروك الفخارية الشهيرة في مواقع تبعد آلاف الكيلو مترات عن المدينة الأم، والتي ربما كانت تستخدم لتعبئة بضاعة مميزة من إنتاج أوروك أو مقلدة لها، تماماً كزجاجات الكوكا كولا، الفارغة، التي تملأ مكبات النفايات في جميع أصقاع العالم.

المفارقة في الموضوع أن حضارة وادي الرافدين لم تكن معروفة قبل منتصف القرن التاسع عشر، باستثناء ما ذكر في التوراة من أسماء وأحداث كالسبي البابلي، والإشارات إلى بابل في رؤيا يوحنا اللاهوتي، وغير ذلك من معلومات مقتضبة في المؤلفات اليونانية القديمة. فحتى ذلك التاريخ، كان يعتقد أن برج بابل من ابتكار الخيال. غير أن التنقيبات الأثرية والمعلومات من المصادر الكتابية أوضحت أن هذا البرج موجود فعلاً، لا بل يمكن معاينة المكان الذي بنيت أساساته فيه، أما حجارته فلم تختف كلية، بل أعيد استخدامها في المدرج اليوناني، ليس بعيداً عن موقع البرج، والذي قام ببنائه الإسكندر المقدوني، هذا المدرج، الذي بقي محفوظاً أكثر من ألفي عام، ليتعرض للتخريب قبل أقل من شهرين نتيجة العدوان الأخير من بين عدد من المنشآت في موقع بابل الأثري.

جاءت معلوماتنا عن حضارة وادي الرافدين نتيجة استكشافات علمية، إن كان من خلال التنقيبات أو من تقييم الألواح أو الرقم الطينية، التي عثر على مئات الآلاف منها، وأسفرت دراستها عن معرفتنا بمجتمع وادي الرافدين. غير أن هذه

المعرفة كانت نتاج الدراسات الغربية، ولم يكن للعراقيين أو العرب إلا دور ضئيل في الضلوع بها. ربطت حضارة وادي الرافدين في هذه الدراسات بالحضارة الغربية، ولا شك أن جزءاً من هذا الربط جاء بتأثير الأيديولوجية المسيحية، التي استوعبت أيضاً تراث العهد القديم، أي عملياً التوراة، وبالتالي كثيراً ما تقيم حضارة وادي الرافدين من هذا المنظور، وبالأخص فيما يخص الجوانب الفكرية، من باب المقارنة وأحياناً التفضيل، كالتوحيد أمام تعدد الآلهة، ومن خلال التفسيرات اللغوية باستخدام العبرية القديمة في الدرجة الأولى، وإلى حد أقل بكثير العربية الفصحى. وكثيراً ما يخرج المرء بانطباع أن الصورة المركبة الناتجة هي ما يريده الغرب لحضارة وادي الرافدين أن تكون، في حين أنه لا تجري قط أي مقارنات مع التراث الشعبي العراقي أو اللهجة المحكية في العراق.

ولكن يبقى السؤال الكبير هو كيف يمكن للحضارة الغربية أن تقوم بتدمير أحد مناهلها، كما تدعي هي؟ ومن باب التبسيط يمكن القول إن الحضارة الغربية تحمل في ثناياها قوة مدمرة لا تتوانى عن تدمير الذات. غير أنه لا يمكن لهذه المقولة من أن تخفي الحقيقة البسيطة، وهي أن حضارة وادي الرافدين قد ظهرت في العراق. وكذلك الأمر بالنسبة للحضارة، التي تمثلها التوراة، التي ظهرت في فلسطين. وفي الحالتين، لا يمكن للجذور الحضارية، من حيث المبدأ، أن تتمثل اليوم في شعوب أو جماعات غريبة عن المنطقة. وفي هذا السياق تجدر المقارنة بين ما فعله غزاة العراق وغزاة فلسطين. فلعل التدمير، الذي طال المؤسسات الحضارية في العراق، ينطوي على نزعة أمريكية تتمثل بإلغاء التاريخ، أو "تخفيفه"، كما عبر عن ذلك الشاعر اللبناني شوقي بزيع. وبالمقابل، يعمل الغزو الصهيوني على استعادة التاريخ، وربطه بالغزاة الغرباء من جهة، ومن جهة أخرى على إلغاء الشعب الفلسطيني، الذي يمتلك حضارياً الحق الفعلي بهذا التاريخ.

إن المقابلة بين سومر وأكادة، أو العراق قديماً، وأمريكا اليوم، يدفع إلى التساؤل فيما إذا كان العدوان على الجذور الحضارية للعراق هو مجابهة لما كان يمثله العراق، جيوسياسياً، من قوة حضارية في الماضي، أو، إن عكس ذلك على المستقبل، ما يمكن أن يصبح عليه العراق من قوة إقليمية تهدد مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، وخاصة أمن حليفتها إسرائيل. وهناك ما يشير إلى أنه كان للعراق بالذات تطلعات قومية وحدوية لمناهضة الكيان الصهيوني، حتى قبل تأسيسه

عام 1948، كما أقر بذلك بن غوريون نفسه. فقد فسر الأخير مبادرة لنوري السعيد لإنهاء الإضراب العام سنة 1936 بأنها محاولة لاستغلال الأوضاع و"لخلق أفق أوسع في المستقبل للتدخل العراقي في الشؤون الفلسطينية ولدعم أفكاره نحو الوحدة العربية".

إذن، يبدو أن القوة الحضارية، التي كان العراق يمثلها في الماضي، وما يمكن أن يمثله في المستقبل، هي ما ينبغي القضاء عليه اليوم، وخاصة أي توجه نحو سيطرة إقليمية قد تشكل تهديداً للكيان الصهيوني. ولا شك أن وعي الشعب العراقي بتاريخه الحضاري يزداد عمقاً مع وجود مخلفات هذا التاريخ الحضاري في متاحفه وبالقرب منه. غير أنه لا يمكن لتخريب القطع، التي تمثل الإنجازات الحضارية القديمة أو محاولة إخفاءها بسرقتها، أن يقضي على الإنسان العراقي، الذي تجسدت فيه هو الجذور الحضارية للعراق قبل تجسدها في مقتنيات المتاحف. والمهمة، التي تقع على عاتق العراقي اليوم، هي في العودة إلى نفسه.. والبداية تتمثل بدحر الاحتلال.



الحاكم
وفقير نيبور

حكاية بابلية من الألف الثاني ق.م

■ بقلم: د.فاروق اسماعيل *■

استقر الاستيطان البشري في مناطق الشرق القديم منذ نحو خمسة آلاف سنة، ونشأت فيها حضارات مزهرة اتصفت بتكاملها وتنوعها وتواصلها؛ فقدمت للبشرية إبداعات خلاقة ما زالت موضع اهتمام الأجيال وفخرهم، بعد أن كشف عنها الأثريون ودرسوها وقوموها وزينوا بها المتاحف.

وكان الأدب من أبرز إبداعات الإنسان في الشرق القديم، سجل من خلاله مشاعره وقيمه، وصوّر واقعه وتطلعاته، ومجدّ المآثر البطولية وغيرها. وقد تنوعت موضوعاته وأشكاله الفنية إلى حد كبير، وبدرجة لا تقل عن أدب العصور اللاحقة.

ولقي الكتّاب آنذاك أهمية بارزة في المجتمع، وكان معظمهم من الكهان المتميزين المولعين بالتراث الشعبي الشفهي وبصياغة الأفكار الفلسفية كمسائل الخلق وأسرار الحياة والموت وطبائع البشر؛ كما اهتموا بنظم مقطوعات غنائية ترتل في المعابد. ولذلك نجد أن السومريين عدوا فن الكتابة واحداً من المميزات والمقومات الحضارية؛ كما يتبين من جدول صاغوه لهذا الغرض، وضمنوه فن الكتابة مع مئة مهنة ووظيفة حضارية.

يمتد تاريخ الأدب في عصور ما قبل الميلاد طويلاً، وقد مر بمراحل متعددة

* جامعة حلب ، مختص في اللغات والآداب السورية القديمة

متمايزة في بعض المظاهر الفكرية والفنية. وأبدعت الأعمال الأدبية في معظم مناطق الشرق القديم، وتميزت من بينها بلاد الرافدين. وشملت الأساطير التي تناولت مسائل خلق الكون والكائنات الحية وعالم الدنيا الآخرة وأسرار ظواهر الطبيعة وعلاقات الآلهة المتعددة التي كانوا يعبدونها، وكذلك الملاحم التي ركزت على البطولات الفردية والصراع الإنساني من أجل الخير والبقاء. ومنها أيضاً قصائد في المديح الإلهي، وفي الندب والرثاء، ومناظرات وحواريات، وقصائد غنائية في العشق والغرام، وأدعية وصلوات، ورسائل أدبية، وأعمال نقدية ساخرة.

لقد شارك في العملية الإبداعية معظم شعوب المنطقة، وطرقوا الموضوعات نفسها أحياناً، وتبادلوا التأثير في الأفكار والأسلوب الفني، وأضافوا وعدّلوا. ويلاحظ أن شعوباً ركزت على موضوعات معينة أكثر من غيرها، وتميزت فيها، مثل رثاء المدن لدى السومريين، وأدب الدعاوة السياسية لدى الأكديين، وعمق التحليل الفكري الرمزي لدى الحوريين، وتشخيص الطبيعة ومظاهرها والتعلق الزائد بها لدى الأوغاريتيين(1).

ويشكل النص الذي نعرضه واحداً من تلك النصوص الإبداعية المثيرة، وفي تصوري أنه يمتلك مقومات عمل درامي ممتع.

إنه يمثل حكاية بابلية ساخرة تعود صياغتها الكتابية إلى أواخر الألف الثاني ق. م، ويبدو أنها تعتمد على حكاية كانت شائعة في الموروث الشعبي على نطاق واسع في بلاد الرافدين قبل ذلك بقرون. وصلتنا الحكاية مدونة على رقم طينية، بالكتابة المسمارية واللغة الأكدية (الآشورية، البابلية)، وفي نسخ متعددة من ثلاثة مواقع، هي: خوزيرينا (حالياً سلطان تبه في منطقة ماردين بتركيا)، نينوى (جوار الموصل)، نيبور (حالياً نُفّر، شرقي الحلة). ولعل تباعد هذه المواقع دليل على سعة انتشارها(2).

تعبر الحكاية عن أحلام المنتمين إلى الطبقات الفقيرة من سكان بلاد الرافدين، وأملهم في معاقبة حكامهم غير المبالين بفقرهم وأوضاعهم السيئة؛ ولا سيما حكام المقاطعات والمدن. وهي غنية بصور مستقاة من الواقع، وبإسقاطات ترك تقديرها وتحديدها للمستمع أو القارئ، ولعلها كانت مفهومة في أذهان الشعب آنذاك.

لقد صيغت الحكاية صياغة فنية سلسة، وبناها كاتبها المجهول على مدخل وأربعة مقاطع رئيسية، على النحو الآتي:

1-مدخل تم فيه تحديد المكان والزمان، والتعريف بالفقير المدعو جيميل نينورتا وأحواله البائسة (السطور 1-10).

2-محاولة التقرب من حاكم المدينة أملاً في عطفه عليه ونجاته من الفقر المدقع، وذلك بتقديم هدية له، ولكن الحاكم عدّها تجاوزاً وطرده. فقرر الفقير الانتقام ورد الإهانة بثلاث (السطور 11-69).

3-الانتقام الأول (السطور 70-114)

4-الانتقام الثاني (السطور 115-140).

5-الانتقام الثالث (السطور 141-161).

وجدير بالذكر أنه لوحظ وجود مشابهات لهذه الحكاية في الأعمال الفولكلورية لكثير من الشعوب، وقد ذكر باحثون مشابهات لها -بشكل أو بآخر- في الموروث الشعبي الأوربي (الهنغاري، الروماني، الكريتي، الصقلي، الفرنسي، الألماني...)(3) ولا يخفى أنها تشبه في أسلوبها حكايات من "ألف ليلة وليلة".

نشرها أول مرة الباحث جورني O. R. Gurney في حولية الدراسات الأناضولية، المجلد السادس (1956). وفيما يأتي نعرض ترجمة كاملة لها عن لغتها الأم (الأكدية) مع الاستعانة بترجمة جورني وفوستر B. Foster الإنكليزيتين(4). وقد حافظنا على ترتيبها وفق الأصل، وأضفنا بين قوسين كلمات تفيد في التوضيح وربط السياق.

كان هناك -في زمن مضى، في مدينة نيبور- رجل فقير ومحتاج.
كان يدعى جيميل نينورتا، رجل بائس.
كان يسكن في مدينته نيبور، ويعيش في فقر مدقع.
لم تكن لديه فضة كما يليق بقومه،
لم يكن لديه ذهب كما يليق بالبشر،
مخزنه يحتاج إلى حبوب نقية،
بطنه يحترق، يتشوق إلى الخبز،
وجهه بائس، يتشوق إلى لحم، وشراب لذيذ،
يشتهي كل يوم وجبة طعام، ولكنه يخلد إلى النوم جائعاً،

يرتدي ثوباً واحداً لا يمتلك غيره.

**

(ذات يوم) تشاور مع قلبه البائس، (وقرر:)
"سأخلع ثوبي الذي لا أمتلك غيره، (وأبيعه)
سأشتري خروفاً في سوق مدينتي نيبور"
(وفعلاً) خلع ثوبه الذي لا يمتلك غيره،
واشترى عنزة عمرها ثلاث سنوات من سوق مدينته نيبور.
تشاور مع قلبه البائس، (وحدثته نفسه:)
ماذا لو ذبحت العنزة في فناء داري؟
لا لن تكون وجبة طعام كاملة؛ حيث لا توجد الجعة (البيرة)،
وأصدقائي في محيط جواري سيسمعون بذلك وينزعجون،
أهلي وأقاربي سيغضبون،
لذا دعني أمسك بالعنزة، وأخذها إلى بيت حاكم المدينة،
سأصنع بذلك عملاً جيداً ولطيفاً لمعدته ومزاجه.
سحب جيميل نينورتا عنزته من الرقبة،
انطلق نحو بوابة قصر حاكم مدينة نيبور.
قال لحارس البوابة توكولتي إنليل الكلمات الآتية:
قل للحاكم إني أريد الدخول لأراه.
قال الحارس لسيده:
سيدي! مواطن من نيبور ينتظر أمام بوابة قصرك،
قد أحضر لك عنزة هدية.
غضب الحاكم على توكولتي إنليل، وقال:
لماذا يظل مواطن من نيبور ينتظر أمام البوابة؟!
الحارس.......... إلى..........،

دخل جيميل نينورتا إلى الحاكم مبتهجاً.
عندما صار جيميل نينورتا أمام الحاكم،
حمل عنزته من الرقبة بيده اليسرى،
وبيده اليمنى صافح الحاكم، وقال:
عسى الإله إنليل ومدينة نيبور أن يباركا الحاكم.
عسى الإلهان نينورتا ونوسكو أن يوفقاه توفيقاً عظيماً.
قال الحاكم كلمات للمواطن:
ما هي مشكلتك حتى تحضر لي هدية؟
روى جيميل نينورتا حكاية زيارته (وهدفها) لحاكم نيبور:
كل يوم أشتهي وجبة طعام، ولكني أخلد إلى النوم جائعاً،
خلعت ثوبي الذي لا أمتلك غيره،
واشتريت عنزة عمرها ثلاث سنوات من سوق مدينتي نيبور.
قلت لنفسي معبراً عن قلبي البائس:
ماذا لو ذبحت العنزة في فناء داري؟
لا لن تكون وجبة طعام كاملة، حيث لا توجد الجعة،
وأصدقائي في محيط جواري سيسمعون بذلك وينزعجون،
أهلي وأقاربي سيغضبون،
لذا دعني آخذ العنزة إلى بيت الحاكم.
هذا ما قلته من شدة بؤس قلبي
[ستة سطور مخرومة وغير واضحة القراءة. يبدو أنها تضمنت ما يدل على أن الحاكم أمر بذبح العنزة وإعداد وجبة طعام].
أعط مواطن نيبور عظماً وغضروفاً
أعطه جعة رديئة للشرب؛ من قارورتك.
اطرده، ارمه خارج البوابة.

أعطى مواطن نيبور عظماً وغضروفاً،
أعطاه جعة رديئة للشرب؛ من قارورته،
طرده، رماه خارج البوابة.
عندما صار جيميل نينورتا خارج البوابة،
قال للحارس حامي البوابة كلمات:
بهجة الآلهة لسيدك! قل له:
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
ولكني سأجعلك تدفع ثمنها ثلاث مرات!
وعندما سمع الحاكم ذلك، ظل يضحك طوال النهار.

***

جلس جيميل نينورتا خارج قصر الملك،
رأى الأمير والوزراء يصدرون بأمر الملك قرارات عادلة،
استطاع جيميل نينورتا أن يمثل بين يدي الملك،
سجد أمامه وقدم فروض الطاعة، وقال:
أيها النبيل! يا أمير الشعب!
أيها الملك الذي تمنحه الروحُ المقدسة المجدَ!
دعهم يعطوني بأمرك عربة
أفعل بها ما أشاء يوماً واحداً،
سأدفع عن هذا اليوم الوحيد ماناً واحداً من الذهب الأحمر.
لم يسأله الملك: ما رغبتك
في أن تجري عَرْضاً طوال النهار في عربة؟
لقد أعطوه عربة جديدة لائقة بالرجل النبيل،
ودثروه بوشاح..............
ركب العربة الجديدة اللائقة بالرجل النبيل

بدأ جولة في...... دورانكي،
صاد جيميل نينورتا طائرين،
حبسهما في صندوق ختمه بختم،
وانطلق إلى بوابة حاكم نيبور
رآه الحاكم، خرج لاستقباله، وقال:
من أنت يا سيدي؟ لم جئت مسافراً في وقت متأخر من النهار؟
(أجاب) الملك، سيدك أرسلني لـ........
لقد جلبت الذهب لمعبد إكور، معبد الإله إنليل.
أمر الحاكم بذبح شاة طيبة لإعداد وجبة سخية له،
ولكنه في قرارة نفسه تمتم: يا إلهي! أنا متعب!
أما جيميل نينورتا فقد ظل طوال الليل مع الحاكم يقظاً.
من شدة التعب؛ غلب النوم الحاكم،
نهض جيميل نينورتا في أعماق الليل بهدوء،
فتح غطاء الصندوق، طار الطائران إلى السماء، (وصرخ:)
قم يا أيها الحاكم! لقد سُرق الذهب، لقد فُتح الصندوق!!
غطاء الصندوق مفتوح! لقد سرق الذهب!
مزق جيميل نينورتا ثيابه بألم مبرح،
هاجم الحاكمَ بعنف، جعله يتوسل الرحمة،
ثم أشبعه ضرباً من الرأس حتى أصابع القدمين،
حتى جعله يتوجع ويئن.
(ركع) الحاكمُ أمام قدميه وهو يصرخ، ويتوسل (إلى جيميل نينورتا):
سيدي! لا تهلك مواطناً من نيبور،
لا تلطخ يديك بدم شخص مصون ومقدس لدى الإله إنليل.
(ثم بعد أن ساد الهدوء) أعطوه مقابل هديته(2) مانا من الذهب

الأحمر،
وأعطاه مقابل الثياب التي مزقها ثياباً أخرى.
عندما غادر جيميل نينورتا البوابة،
قال لتوكولتي إنليل حارس البوابة:
بهجة الآلهة لسيدك! قل له:
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
وها قد أهنتك مرة أيضاً، ولكن بقيت مرتان بعد.
عندما سمع الحاكم ذلك؛....... طوال النهار

***

سار جيميل نينورتا إلى الحلاق،
جعله يقص كل شعره من الجانب الأيسر.
وملأ إناءً فخارياً بـ....
وانطلق نحو بوابة حاكم نيبور.
قال للبواب، حارس البوابة:
أعلم سيدك أني أود الدخول لرؤيته.
من أنت حتى تراه؟
أنا طبيب من مدينة إيسين، يفحص.....
حيثما يكون مرض واعتلال.... في الجسم.......
وعندما مثل جيميل نينورتا أمام الحاكم،
كشف الحاكم له عن كدماته التي حدثت عندما أشبع جسمه ضرباً.
قال الحاكم لخدمه: هذا الطبيب ماهر!
(قال جيميل نينورتا:) سيدي! إن أدواتي تؤثر في الظلمة،
في مكان خاص، بعيداً عن الطريق.
قاده الحاكم إلى غرفة منعزلة،

حيث لا صديق أو رفيق يمكن أن ينجده.
ألقى (جيميل نينورتا) بالإناء على النار،
دق خمسة أوتاد في الأرض القاسية،
ربط رأس الحاكم ويديه وقدميه بها،
ثم أشبعه ضرباً من الرأس حتى أصابع القدمين،
حتى جعله يتوجع ويئن.
وعندما غادر جيميل نينورتا البوابة
قال لتوكولتي إنليل حارس البوابة:
بهجة الآلهة لسيدك! قل له:
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
وها قد أهنتك مرتين، ولكن بقيت واحدة بعد.

***

كان جيميل نينورتا قلقاً ومتلهفاً، يرفع أذنيه ككلب،
ينظر إلى الناس حوله بحذر، يتفحص بدقة كل الناس.
وجد رجلاً يأمل في أن يعوض خسائره
أعطاه عنزة هدية، (وقال له:)
اذهب إلى بوابة حاكم نيبور، وابدأ بالصياح
حتى يجتمع كل الناس بأعداد ضخمة على صياحك،
(ونادِ:)أنا الطارق على بوابة الحاكم، أنا الرجل ذو العنزة!
أما جيميل نينورتا فقد اختبأ تحت جسر قريب ككلب.
خرج الحاكم على أثر صياح الرجل،
ونادى خارجاً كل ساكني داره؛ ذكوراً وإناثاً.
اندفعوا بقوة كلهم لمطاردة الرجل.
وبينما كانوا يطاردون الرجل كلهم.

تركوا الحاكم وحيداً في الخارج.
ظهر جيميل نينورتا فجأة من تحت الجسر، وقبض على الحاكم،
155) هاجم الحاكمَ بعنف، وجعله يتوسل الرحمة،
أشبعه ضرباً من الرأس حتى أصابع القدمين،
حتى جعله يتوجع ويئن. (وقال له:)
ألحقت بي الإهانة مرة واحدة،
وها قد أهنتك ثلاث مرات.
ثم تركه، واختفى في ريف البلاد.
أما الحاكم فقد عاد إلى داره مترنحاً.

***

توضيحات:

1) تعرف أطلال مدينة نيبور القديمة حالياً باسم قريب لفظاً هو نُفَّر (شرقي الحلة في جنوبي العراق). برزت أهمية المدينة في الألف الثالث ق. م كأهم مركز ديني للسومريين، وفيها المعبد الرئيسي لإلههم إنليل. وكانت فيها مدرسة كبرى لتعليم الكتابة آنذاك، وقد عثر في موقعها على بضعة آلاف من الرقم الطينية المسمارية.

2) جيميل نينورتا هو بطل الحكاية، واسمه بابلي يعني "جميل الإله نينورتا". ونينورتا هو ابن إنليل وإله الحرب، ومركز عبادته نيبور.

25) توكولتي إنليل حارس بوابة الحاكم، واسمه بابلي يعني "اتكالي هو على الإله إنليل". وإنليل هو إله الهواء والعواصف وسيد ألواح القدر وزعيم مجمع الآلهة.

28) نوسكو هو إله النار لدى السومريين، وابن إنليل أيضاً.

59) حرفياً: أعطه جعة (بيرة) من الدرجة الثالثة.

78) مانا وحدة وزن قديمة، كانت تعادل نحو 480 غراماً، والاسم سومري الأصل.

84) دورانكي منطقة في ضواحي مدينة نيبور.

91) إكور هو –كما جاء في النص– اسم معبد الإله إنليل في نيبور. ومعنى الاسم هو "البيت الجبلي".

105–106) يشيران إلى قدسية نيبور. ومعلوم أن سكانها كانوا يعاملون معاملة خاصة فلا يكلفون بدفع الضرائب ولا بالمشاركة في الحروب.

116) يبدو أن حلاقة شعر جانب من الرأس كانت علامة مميزة للمشتغلين في المداواة.

122) تعرف أطلال مدينة إيسين حالياً باسم إيشان بحريات، وتقع على بعد نحو 30 كم جنوبي نفر. كانت إيسين مركزاً لعبادة الإلهة نين إيسينا "سيدة إيسين" أو الإلهة جولا، وهي إلهة الطب والشفاء.



الهوامش:

1.للاستزادة؛ راجع كتابنا: إرا وملك كل الديار، ملحمة بابلية. دار جدل، حلب 1998. ص 13–45.

2.من الأعمال التي تعرضت للحكاية بإيجاز نذكر:

Roellig (Hrsg): Altorientalische Literaturen. Wiesbaden: (1978) akkadische literature. Rla/7 (1987) 64.

W. von Soden: Einfuehrung in die Altorientalistik. Darmstadt, WB (1985) 214 f.

H. Klengel (Hrsg): Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Akademie- Verlag Berlin (1989) 201f.

O.R. Gurney: the Tale of the Poor Man of Nippur and its Folktale Parallels An St. 22 (1972) 149 ff.

.O.R. Gurney: An St. 6 (1956) 145-162 An St 7 (1957) 135-136.

B. Foster: Befor the Muses. An Anthology of Akkadian Literature.

CDL Press, Bethesda-Maryland (1993) 829-834.



البنية الاجتماعية والثقافية للمرأة

في ملحمة جلجامش

■ دراسة : د.وداد الجوراني ■

لمحة تاريخية

إنانا السومرية، عشتار البابلية والآشورية –وما ورد من أسماء بعض النساء، إن هي إلا أسماء آلهات يضطلعن ببعض المهام والحرف الموكلة إليهن. ولكن هذه الأسماء، مثل (شاله، نيسابا، كشتون أنا) تعطينا فكرة عن طبيعة الأعمال والحرف التي كانت المرأة تمتهنها آنذاك.

أما المصدر الأكثر أهمية، فهو الشرائع العراقية القديمة، وبعض المواد القانونية (1)، التي اكتشفها المنقبون الآثاريون في أكثر من مدينة من مدن العراق القديم، بعضها يعود إلى العصر السومري، وبعضها للعصر البابلي، والآشوري أيضاً، ومن خلال هذه التشريعات يمكن تلمس بعض المعايير الاجتماعية التي تحدد هوية المرأة ومكانتها ودورها الحضاري، ونظرة المجتمع إليها ومن الأمور المسلم بها، أن الحاجة إلى القوانين وإلى الحرية والعدالة الاجتماعية لا تبرز ضرورتها إلا في مجتمعات بلغت مرحلة لا بأس بها من نموها الاجتماعي والسياسي.

يقول د. بهنام أبو الصوف: "بعد انقضاء الألف الرابع ق. م، لما نمت قرى العراق الأولى، وصارت مدناً، تعقدت فيها الحياة وتشابكت مصالح السكان والمعبد والكهنة، كان لا بد من تشريعات لحماية الفرد في المجتمع، وتنظيم أمور الحياة في دولة المدينة، فوضعت الإصلاحات الاجتماعية، وأعقبتها قوانين وشرائع، وفي

جميعها كان للمرأة نصيب كبير (2).

والملفت في هذه الشرائع والمواد القانونية، أنها أفرزت جزءاً كبيراً منها لمعالجة مشاكل المرأة في مجال الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث وتَبَنٍّ ومشاكل أسرية خاصة إضافة إلى مواد قانونية أخرى تتناول مشاكل المرأة في مجالات مختلفة كالتجارة، وممارسة الأعمال الحرة والشهادة وعلاقاتها العامة (وهناك العديد من النصوص التي تشير إلى أن النساء السومريات كن يمتلكن العبيد والإماء ومساحات من الأراضي، وعدداً من الماشية، وكميات من النقود، وكان للمرأة حق رفع الدعاوى، والظهور كشاهدة في المحاكم، والزوجة هي المسؤولة الوحيدة عن أطفالها القاصرين عند وفاة زوجها) (3) وقد شاركت نساء سومريات معروفات، أزواجهن الأمراء والحكام في الإشراف على شؤون الدولة، وتصريف الأمور، وجمع الضرائب، وشراء العبيد، وترؤس الاحتفالات الدينية.

وقد أخذت المرأة حيزاً في أقدم شريعتين عراقيتين اكتشفنا لحد الآن. الأولى "قانون لبت عشتار"، والثانية "قانون مملكة أشنونا"، أو ما يسمى "قوانين تل حرمل" وقد كتبتا قبل قرن أو قرنين من "شريعة حمورابي". وجدت في الأولى مواد تتعلق بالأحوال الشخصية (في الحقل الرابع من قانون لبت عشتار) (4).

أما قانون مملكة أشنونا (*)، فقد تناولت محتوياته الأحوال الشخصية في المواد القانونية: السابعة عشرة والثامنة عشرة، ثم المواد القانونية من الرابعة والعشرين حتى المادة الخامسة والثلاثين، ثم المادتان الثامنة والثلاثون والتاسعة والخمسون علماً أن القانونين المذكورين يعودان إلى العصر السومري.

أما قانون "أورنمو" (2111 –2003 ق. م) (5)، فيحتوي بالأصل على أكثر من (31) مادة قانونية، ولكن لم يصلنا منها سوى تسع وعشرين مادة منها ثماني مواد تتعلق بموضوع الأحوال الشخصية، وهي المواد الحادية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة، والثانية والعشرون والثالثة والعشرون.

ولا يفوتنا ذكر أقدم إصلاحات اجتماعية وهي إصلاحات أوروكاجينا (أورو – أنبحينا) 2378 –2371 ق. م.

وقد اهتم المشرع حمورابي في شريعته الشهيرة بتنظيم الأحوال الاجتماعية، إضافة إلى تنظيمات أخرى: إدارية وسياسية وعسكرية... الخ حيث استأثرت الأحوال

المدنية بقسط وافر منها. وتحوي شريعة حمورابي (1792 –1750 ق. م) الشهيرة على أكثر من ثلاثين مادة قانونية (المواد 127 –194) تعالج فيها شؤون الأسرة من زواج وطلاق وإرث وتَبَنٍّ الخ.

ولدينا نص مسماري من القرن الثامن عشر ق. م يشير إلى أن المرأة قد ساهمت في هيئة المحلفين أمام مجلس للقضاء في مدينة نفر.

ويجب أن نشير إلى مواد قانونية أخرى نسبت إلى العصر الآشوري حيث أصدر عدد من الملوك الآشوريين الذين حكموا ما بين (1362 –1074 ق. م) مراسيم. وهذه المراسيم تنظم العلاقة بين نساء القصر وبين الملك والأفراد المخصصين لخدمة هؤلاء النساء اللائى يتألفن ممن يلي: 1– أم الملك 2– زوجة الملك 3– نساء القصر.

وهناك العديد من رقم الطين لقوانين آشورية تتطرق في عدد من موادها إلى حياة المرأة الآشورية، وأخرى تعود للعصر البابلي الحديث "عصر نبوخذ نصر الثاني 605 –562 ق. م.

الشيء المهم في هذه الشرائع –وبخاصة في شرائع حمورابي –مما له صلة ببحثنا هو أن هذه الشرائع تعكس صورة المجتمع، وتطلعنا على حقيقة المركز الاجتماعي للمرأة –في غياب وثائق شافية عن موضوع المرأة –والذي له علاقة وثيقة بمركزها الاقتصادي والسياسي والديني. تشير شريعة حمورابي إلى وجود أصناف من النساء ينتمين إلى فئة معينة تفرض عليهن حقوقاً وواجبات لا يجوز الخروج عليها أو المساس بها، وإلا فإنهن يقعن تحت طائلة القانون وتسري عليهن أقسى العقوبات، وتتراوح بين دفع الغرامة، وبين الموت، وفيما يلي أصناف النساء التي ذكرت في شريعة حمورابي وهي:

1–إنتو	(6) Entu
2–ناديتو	(7) Naditu
3–قادشتو	(8) Qadistu
4–كلماشيتو	(9) Kulmasitu
5–شوكيتو	(10) Sugeitu
6–سال زكروم	(11) sal-zikrum

كانت المرأة باستقراء بعض الباحثين –مهمة إلى حد ما، بالقياس إلى الرجل، لكن الوثائق، رغم ذلك، أشارت إلى أهليتها الكاملة في الحقوق والممارسات التجارية في العصر البابلي القديم. فقد كانت تشتري وتبيع.. كما قدمت القروض، واستأجرت، وأجرت، وأهدت وكانت سمعتها محمية بموجب المادة 127 من شريعة حمورابي، من شطط الكلام والإهانات، أو هذا ما كانت تهدف إليه الشريعة: "إذا أشار رجل بإصبعه إلى كاهنة رفيعة أو زوجة رجل، ولم يثبت إدانتها، فيجب أن يقدم الرجل إلى المحكمة، وأن تقص ناصيتاه –كعلامة للعار.

وتوضح المواد التالية المضمون السابق أيضاً:

المادة 45

إذا.. قد ضرب ابنة رجل حر، وسبب لها الإجهاض، عليه أن يدفع نصف المنا (*) من الذهب.

المادة 50

وإذا توفيت (البنت) فسوف يقتل ذلك الرجل.

المادة 65

إذا.. قد ضرب أمة رجل، وسبب لها الإجهاض، عليه أن تدفع خمسة شيقلات من الفضة (12).

1-ننسون: الأم في حياة البطل

مصدرنا الأساس في التعرف على شخصية "ننسون" هو نص ملحمة جلجامش التي تذكر أن أمه هي الربة ننسون التي كان لها مزار داخل القصر الملكي لإضفاء صفة القدسية على شخصها.. والواقع، لا نعرف من تكون أم جلجامش التي قرنت بالإلاهة ننسون، مما يدل على رفعة مكانتها وشعبيتها، وكونها ذات شخصية غير اعتيادية، واختفت كل الأدلة عن هويتها وراء ادعاء الكهنة – الذين دونوا الملاحم والقصص الخاصة بجلجامش –بأنها في الواقع نفسها الإلاهة ننسون.

وربما يكون إلصاق الألوهية بـ "ننسون" هو وراء وصف الملحمة جلجامش بأنه في ثلثيه إله وفي ثلثه الآخر بشر. وقد ورث عن أمه "ننسون" الجمال الفائق والقوة وانعدام الاستقرار وهو الرأي الذي نجد صداه الآن في مثل عراقي دارج فحواه، إن

الإنسان يكتسب ثلثي صفاته من جهة أمه.

وكما ورث الجمال عنها فقد حباه شمش بالحسن والجمال، وخصه أدد بالبطولة.

ولكن ما علاقة ننسون "الأم" بجلجامش "البطل"، وما هي الآصرة التي تجمع بينهما، وهل وفق نص الملحمة في شرح هذه الآصرة من حيث كونها أثرت في توجيه مسار البطولة عند جلجامش؟ من هذه الزاوية سنحاول أن نرصد العلاقة الإنسانية بين البطل وأمه، في مرحل من مراحل تطور شخصيته، ورصيدنا في ذلك هو الإشارات التي وردت في نص الملحمة، مدعمة ببعض المواد القانونية التي وردت في شرائع العراق القديم، أو من بعض شذرات حكمية..

أول إشارة في الملحمة تذكر لنا أن جلجامش:

نسل "لوجال -بندا" أنه جلجامش المكتمل القوة

ابن البقرة الجليلة" رمات -ننسون (13)

ثم -بعد ذلك -في الوقت الذي تكون البغي تحاور أنكيدو ومحدثة إياه عن جلجامش "المبتهج بالحياة" قائلة (14)

" سيراك جلجامش في الرؤى وهو في الوركاء"

استيقظ جلجامش فعلاً في تلك اللحظة وأخذ يقص رؤياه على أمه:

يا أمي لقد رأيت الليلة الماضية حلماً

رأيت أني أسير مختالاً بين الأبطال

فظهرت كواكب السماء

وقد سقط أحدها إلي وكأنه شهاب السماء "أكو"

أردت أن أرفعه فلم أستطع أن أحركه

تجمع حوله أهل بلاد "الوركاء"

ازدحم الناس حوله وتدافعوا عليه

واجتمع عليه الأبطال

وقبل أصحابي قدميه

أحببته وانحنيت كما أنحني على امرأة

ورفعته ووضعته عند قدميك

فجعلته نداً لي"

فأجابت جلجامش أمه البصيرة العارفة وقالت له:

قالت "ننسون" العارفة بكل شيء لجلجامش:

إن رؤيتك نظيرك كوكب السماء

والذي سقط إليك وكأنه شهاب السماء

والذي أردت أن ترفعه فثقل عليك

وأحببته وانحنيت عليه كما تنحني على امرأة

والذي وضعته عند قدمي

فجعلته أنا نظيراً لك

إنه صاحب قوي يعين الصديق (عند الضيق) سيأتي إليك

إنه أقوى من في البلاد وذو عزم شديد

وأما أنك أحببته فانحنيت عليه كما تنحني على امرأة

فمعناه إنه سيلازمك ولن يتخلى عنك

وهذا هو تفسير رؤياك (15)

لقد فسرت "ننسون" الرؤيا الأولى (16) لجلجامش، ثم أن أم جلجامش الحكيمة المحبوبة فسرت لابنها الرؤيا الثانية والتي تشبه الأولى في خلاصتها.

ثم بعد هذا اللقاء، تنقطع علاقة جلجامش بأمه، حتى يقرر جلجامش أن يشرك معه أنكيدو لمقابلة الوحش "خمبابا"، ولم تمنعه تحذيرات أنكيدو وشيب الوركاء ولم تفل عزمه عن قراره، ولكنهم زودوه بالأسلحة وقلدوه بالسيوف العظيمة، وأسدوا له النصائح بأن يدع أنكيدو يسير أمامه، وطلبوا من "شمش" أن يفتح الطريق لمسراه"، ويمهد مسالك الجبال لقدميه. لقد قالوا له:

عسى أن يقف لوجال -بندا بجانبك

ويجعلك تحقق رغبتك

ومثل (الطفل) عساك أن تحقق أمنيتك (17)

لكن جلجامش لم يكتف بهذه الدعوات والرعاية التي أبداها له أهل الوركاء، فقال لأنكيدو:

هلم بنا يا صاحبي إلى معبد "إي - كال -ماخ"

إلى حضرة "ننسون" الحكيمة البصيرة

بكل معرفة
فإن ننسون الحكيمة البصيرة بكل معرفة
ستمنحنا النصح وتسدد خطانا (18)

رغم الصفات الخارقة التي وصف بها جلجامش، إلا أنه في النهاية إنسان، تتكشف إنسانيته حين يزمع على أمر كبير محفوف بالمخاطر، فيتملكه شعور بالخوف، هو الشعور الطبيعي للإنسان في حاجته إلى الأمان والحنان، لذلك يلجأ جلجامش "الإنسان" إلى أقرب الناس إلى نفسه، فيذهب إلى "ننسون" الحكيمة البصيرة والناصحة ليطلعها على قراره ويطلب منها أن تتشفع له عند "شمش" وأن تصلي من أجله.

وبعد أن ينتهي الحوار فيما بين البطل "الابن" وأمه، تبدأ ننسون بممارسة دور السيدة التي يليق بها أن تكون أماً للبطل، حيث يعمد كاتب الملحمة إلى رسم صورة جميلة وتفصيلية لما فعلته وقالته ننسون –كأسلوب أمومي –لا يخلو من قلق وخوف ظاهرين على ولدها جلجامش:

وإذ ذاك دخلت ننسون حجرتها
وارتدت حلة تليق بجسدها
ووضعت على رأسها تاجها
ثم ارتقت إلى السطح وتقدمت إلى شمش
وأحرقت البخور
قدمت قربان البخور ورفعت يديها إلى "شمش" وقالت:
"علام أعطيت ولدي جلجامش قلباً مضطرباً لا يستقر
والآن حثثته فاعتزم سفراً بعيداً إلى موطن "خمبابا"
سيلاقي نزالاً لا يعرف عاقبته
وسيسير في طرق لا يعرف مسالكها
فحتى اليوم الذي يذهب فيه ويعود
وحتى يبلغ غابة الأرز
ويقتل خمبابا المارد.
ويمحو من على الأرض كل شر تمقته
عسى عروسك "أي" (*) أن تذكرك به
ولتوكل بك حراس الليل (*) والكواكب وأباك وسين
حينما تحتجب أنت في المساء.

ولم تكتف "ننسون" بدعواتها الهادئة المفعمة بالحنان واللهفة على جلجامش "الابن" وحده دون "أنكيدو"، ولكنها استدعت أيضاً كاهنات المعبد ليكنّ شهوداً على دعوتها لأنكيدو وأخذ موثق منه بأنه سوف يحمي ولدها في سفرتهما تلك بأسلوب أقرب إلى التوسل والالتماس منه إلى الأمر والطلب:

ثم أطفأت البخور، و عوذت و أحضرت الكاهنات

والبغايا المقدسات والمتبتلات

ودعت إليها أنكيدو وأوصته قائلة:

يا أنكيدو القوي الذي ليس من رحمي

قد اتخذتك منذ الآن ولدا

ثم قلدت عنقه بقلادة جواهر لتكون موثقاً منه، وقالت له:

"ها أنني إئتمنتك على ولدي، فأرجعه إلي سالماً

لقد انتهى دور الأم عند هذه المرحلة من مراحل البطولة، وانتهت حاجة البطل إليها، بعد أن أشعرته بالأمان والحب. وبذلك تكون "مراهقة" جلجامش قد أتت على نهايتها ولا بد للبطل أن يجرب مرحلة "الرجولة" ويخوض "الامتحان" بنفسه بعيداً عن معونة أقرب الناس إليه.

إن علاقة "ننسون" بالبطل "ولدها" علاقة طبيعية، فهي ليست بالعلاقة التي توصف بالعلاقة السلبية القائمة على تحجيم ولدها أو ردعه أو معاقبته، بمعنى أن علاقة الأم بالبطل ليست علاقة مركبة أو منحرفة تصل إلى حد العقدة النفسية كما نجد ذلك عند البطل الإغريقي أوديب.

وهذه العلاقة المسحوبة، هي التي دفعت البطل إلى اجتياز الامتحان التالي ومقاتلة الوحش "خمبابا" وذبحه.

إن العلاقة بين جلجامش وأمه تعكس صورة الأمومة في المجتمع العراقي القديم التي حظيت بالاهتمام والرعاية من خلال ما وصلنا من وثائق تشريعية وحكمية (تمثل جهداً رائعاً لحماية النساء والأطفال من المعاملة التحكمية والبؤس والإهمال) .(19)

3–سيدوري: المرأة التي نطقت بالحكمة [إلى أين تسعى يا جلجامش؟]

سيدوري أو ما يسمى في البابلية (سابيتم) كما وردت في الملحمة أو كما

يسميها الدكتور فاضل عبد الواحد (السباءة سيدوري) صاحبة الحانة الساكنة عند ساحل البحر، كانت تسكن هناك في منزل منعزل (من الذهب) صنعوا لها برميلاً، عملوا لها دنا، كانت متحجبة بحجاب، جلجامش بعد أن تاه طويلاً، وصل قرب منزلها.

وتلفظ بائعة الخمرة باللغة السومرية ME –KASH. TIN NA ويعود أصل الاسم سابيتم إلى الأصل العربي، فهي كما يقول الأستاذ طه باقر، مشتقة من نفس المادة العربية سبا، ومنها استبا. "والسباء" بياع الخمر ولكن لكونها غريبة فإنها لا تستعمل.

وورد ذكر السابيتم في قانون حمورابي ففي المادة 108 مثلاً:

"إذا استلمت بائعة الخمر نقوداً بالوزن الثقيل، ثمناً للبيرة، بدلاً من استلامها حبوباً، أو أنها جعلت قيمة البيرة (المباعة مقابل حبوب) أقل من قيمة الحبوب (المستلمة) فعليهم أن يثبتوا هذا التحايل على بائعة الخمرة ويقذفوها في الماء (النهر).

وقد مارست المرأة مهنة الكتابة وتزيين الشعر وطحن الحبوب وغزل ونسج الصوف وإلى غير ذلك من الأعمال الحرة، ولكن يبدو أن مهنة بيع الخمرة كانت دون المهن الأخرى وإن سمعة بائعة الخمرة ليست أهلاً للاحترام وهي برأي الدكتور فوزي رشيد –في الواقع لا تختلف عن راقصات الملاهي في الوقت الحاضر، وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن بائعة الخمرة، كانت تتعاطى الجنس كذلك.

ولا نستبعد أن تكون بائعة الخمرة بهذا المستوى الاجتماعي المتدني، فالقوانين تؤكد أن بيتها –بيت بائعة الخمرة –كان وكراً لتجمع بعض العناصر المحتالة أو ما يشبهها، ولذلك فإن شريعة حمورابي أوقعت عليها عقوبات صارمة في حال عدم إخبار القصر بهم، وإلا فإنها تعدم.

والذي يؤكد ضعة هذه المهنة هو أن شريعة حمورابي منعت الكاهنة "ناديتوم" أو "أنتوم" والتي لا تعيش في المعبد، من أن تفتح حانة للخمرة، كما منعت دخولها إلى الحانة أيضاً، وإلا فإنها تحرق. بسبب أن بيع الخمرة أو ارتياد حانة بيع الخمرة، يتنافى والعفة والحشمة التي يجب أن تتمتع بها الكاهنة، مما يسيء إلى سمعتها (20)

الظاهرة التي يمكن أن نستنتجها من النصوص القانونية، هي أن بيع الخمرة كان مقصوراً على النساء (*)، دون الرجال، بالاستناد إلى "قانون أشنونا" الذي حرم على "التاجر أو بائعة الخمرة" أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوبا أو صوفا أو زيتا، كرأس مال للمتاجرة (21) فلو أن مهنة بيع الخمرة كانت من اختصاص الرجال، أو من اختصاص الاثنين (الرجل والمرأة) لما جاء التخصيص في القانون (بائعة الخمرة) بالذات، ومن جانب آخر نستنتج أن بائعة الخمرة –استناداً إلى المادة القانونية السابعة –كانت أيضاً تعمل بالتجارة، إضافة إلى مهنتها.

ومن المحتمل أن تكون محلات بيع الخمرة منتشرة بكثرة، نظراً لاستخدام "الخمرة" في الطقوس والمناسبات وفي تقديم القرابين، مما ألجأ المشرع إلى تنظيم أسس هذه المهنة، مادياً واجتماعياً.

وبالاستناد إلى ما ذكرنا –يمكن أن نفترض أن جلجامش ربما قصد بائعة الخمرة سيدوري، إما لحاجته إلى الشراب، أو لتقديمه (الخمرة) قربانا للإله شمش. ولكن سيدوري –بحكم مهنتها المحكومة بالقوانين الصارمة، حين رأت جلجامش مقبلاً عليها، وهو في تلك الحالة المريبة، توقعت أن يكون من المحتالين، أو من المسلطين عليها، مما دفعها، إلى غلق باب الحانة بوجهه، وأحكمت غلقه بالمزلاج.

نحن نقرأ في بداية اللوح العاشر من الملحمة، إنه بينما كانت سيدوري "السباءة" منهمكة في عملها داخل الحانة، إذ أبصرت بجلجامش على مقربة من حانتها، وجسمه شبه عار لا يغطيه سوى جلد أسود، وقد بدا شاحب الوجه منهوك القوى بسبب سفره الطويل.

ولكن جلجامش –عندما سمع صوت الرتاج –رفع رأسه، ودفع البوابة بقدمه وخاطبها قائلاً: أيتها الشابة، يا صانعة الخمرة، لماذا تغلقين بوابتك... إنني جلجامش الذي أمسك ثور السماء وقتله، لقد قتلت حارس غابة الأرز، صرعت خمبابا الذي كان يعيش في الغابة، وقتلت الأسود في ممرات الجبال.

وبعد أن انتهى جلجامش من كلامه، راحت سيدوري تطرح عليه الأسئلة الواحد تلو الآخر، وهي تقول:

إذا كنت حقاً جلجامش الذي صرع الحارس
وحطم خمبابا الذي كان يعيش في غابة الأرز

والذي قتل الأسود في مسالك الجبال
وأمسك بثور السماء الذي نزل من السماء وقضى عليه
فلم ذبلت وجنتاك واغتم وجهك
وعلام حطم الحزن قلبك وتبدلت هيئتك
ودب الحزن في أعماقك
ولفح البرد وجهك والحر
وجسمك لا يكسوه سوى جلد أسود
ولماذا جئت هاهنا هائماً في المراعي بحثاً عن الريح؟ (22)

أجابها جلجامش بأن كل ما يعانيه من هم وحزن وما يكابده من عناء وتعب إنما بسبب موت صاحبه أنكيدو، وخوفه من أن يكون مصيره هو مثل مصير صاحبه:

فيا صاحبة الحانة وأنا أنظر إلى وجهك
أيكون في وسعي ألا أرى الموت الذي أخشاه وأرهب
فأجابت صاحبة الحانة جلجامش قائلة:
إلى أين تسعى يا جلجامش
إن الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الآلهة العظام البشر
قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت يا جلجامش فليكن كرشك مليئاً على الدوام
وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب نهار مساء
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم بالماء
ودلل الصغير الذي يمسك بيدك
وأفرح الزوجة التي بين أحضانك
وهذا هو نصيب البشرية (23)

إن هذه الحكمة قد سمعها جلجامش من الرجل العقرب الذي فتح له بوابة الجبل ودله على الطريق، ثم سمعها من الإله شمش بعد ذلك، وهاهو يسمعها من بائعة الخمرة سيدوري. ومن المحتمل أن تكون سيدوري واقفة على مفترق الطرق، وإن

جلجامش بعد أن سمع الحكمة منها طلب منها أن تدله على الطريق إلى جده الأكبر أوتو –نبشتم.

كان جلجامش مصمماً على عبور نهر الموت وصولاً إلى أوتو –نبشتم، لكن سيدوري وفرت له النصيحة كي تبعده عن الخطر قائلة:

ولكن يا جلجامش هناك أورشنابي مَلاح أوتو –نبشتم
وعنده صور الحجر وهاهو الآن في الغابة يقتطف النبات
فعسى أن تراه عيناك
وإذا أمكنك فاعبر بصحبته
وإلا فعد إلى وطنك.

بعد هذا الحوار، غادر جلجامش بائعة الخمر سيدوري، وترى الباحثة إنه لم تكن سيدوري إلا محطة من المحطات التي توقف عندها في سفره الطويل المضني، وتبسط معها في الحديث لكي يبلغ مراده وهدفه في عبور البحر. وكانت مشفقة عليه من عبور بحر الموت، لذلك قادته إلى من يسهل له المهمة فهي في هذا المكان وبحكم مهنتها، على معرفة بالبحر وبالغابة، وبالأشخاص الذين يرتادون المكان.

سؤال نوجهه قبل أن نأتي على ما يشابه هذا النسق من العبور: هل تقصّد كاتب النص أن يكون للبطل في كل عبور امرأة؟ ولم المرأة بالذات؟ وهل المرأة هي محطة الرجل التي ينهي بها مرحلة، ليستقل منها أيضاً إلى محطة أخرى، فيها امرأة أخرى؟ لعلنا سنجد الجواب، وإن لم نجد الإجابة، فسيبقى السؤال مشروعاً ووارداً.

شمخة: حاملة عناصر الحضارة

شمخة (الحسناء التي أغرت أنكيدو) (24) نطلق الملحمة عليها ثلاث تسميات:

1- Harimtu ، وتعني "بغي" في البابلية، ويقابلها في السومرية (Kar – kid) ويرجح د. فاضل عبد الواحد، أن تكون هذه الكلمة مشتقة من الفعل البابلي "Haramu " بمعنى عزل، فصل، في إشارة إلى أنها كانت من طبقة معزولة وواطئة اجتماعياً.

2- "Shamhtu " (من الفعل البابلي Shamahu)، أي يفع وشب وامتلأ وتعني الكلمة "مومس" لذلك فهي قريبة من المعنى من Harimtu .

3-Shamhatu ، كانت واحدة من بين أصناف أخرى من النسوة اللواتي كرسن للبغاء في معبد الآلهة عشتار في الوركاء.

اعتبر مجمع وادي الرافدين في الأدوار الحضارية الأولى، البغاء مهنة مشروعة لكسب العيش بالنسبة للأرامل Alamattu والمطلقات، وهن في أغلب الأحيان من طبقة الأحرار، من اللواتي لم يكن لهن واسطة أخرى لكسب العيش لكنها كانت أهلاً للزواج والشهادة في المحكمة.

ولكن مع مرور الزمن، تغيرت نظرة المجتمع إلى البغي، وأصبحت كلمة "بغي" في الفترة الآشورية مرادفة للخزي والعار. وتهمة "البغاء" الموجهة إلى سيدة، إن لم تثبت بالأدلة، فإن الذي اتهمها يعاقب بالضرب والعمل الشاق في خدمة الملك لمدة شهر، ويعزل عن المجتمع ويدفع "تالنتاً" (*) واحداً من الرصاص (25).

وعلينا أن نميز نوعين من البغاء أولهما "البغاء المقدس" الذي تمارسه "بغايا المعبد" في طقوس الخصوبة والكثرة. وثانيهما، البغاء بمعناه العام المعروف عبر التاريخ، ولذلك اختلف الباحثون في شمخة فيما إذا كانت واحدة من بغايا المعبد، أم أنها من النوع الثاني الذي لا علاقة له بطقوس الزواج المقدس، ولكن الدلائل تشير إلى كونها من النوع الثاني، لأن طقوس الزواج المقدس تقتصر على فترات معينة من السنة، وفي الأحوال الاعتيادية يكرسن بالبقاء في المعبد لخدمة الإله الذي ينتمين له.

لقد أوكل الصياد إلى شمخة أن تمارس البغاء بمعناه العام، بغض النظر عن الهدف الذي من أجله ستمارس هذا العمل، أما من حيث الفعل والهدف مجتمعين، فإن شمخة أدت فعلاً مزدوجاً تجاه أنكيدو، لا يمكن الفصل بينهما (ولأول مرة في مجمل الأدب العالمي، نلتقي بفكرة نشوء الإنسان من عالم الحيوان (*) مع فكرة حضارة الجنس البشري.. حيث بعد ذلك تلعب البغي دور حاملة البداية الحضارية كما أوردتها الملحمة، فعلمته الحرف الحضارية واستهلاك الخبز وشرب الخمرة وارتداء الملابس.. وغيرها) (26) وبذلك فهي تذكير بالعصور البشرية الأولى، حينما كان الإنسان وهو قريب جداً من الطبيعة، يحيا بثقة مع الحيوانات. وتنشئته على الحياة المتحضرة تشير إلى المراحل التي قادت الجماعات البشرية من حياة "الرجل" إلى حياة "الجماعات المدنية".

في هذا التطور نلاحظ باهتمام، المكانة التي توليها الملحمة لدور المرأة المنشئة للزراعة.. ونجد فيها أيضاً عناصر الطبيعة المختلفة، وما تشكله للإنسان،

الغابة والبرية والسهب والعالم المتحضر.

وقد استطاعت شمخة أن توقع بانكيدو حتى صار صريع حبها، متمتعاً بجمالها، يتقرب من الناس الآخرين، تاركاً الوحوش والضواري التي نشأ معها في البرية. أنكيدو يصبح بمعاشرته لشمخة المرأة، أكثر ذكاء وفطنة فيحاول أن يأخذ مظهراً إنسانياً.

لقد أيقظت المرأة فيه الإحساس بالجمال، وهذا الإحساس بالجمال، الذي أكدته الملحمة، دخل –ولأول مرة –بصورة حيوية في عملية تطور الإدراك كقوة جبارة لتحويل الكائن شبه الحيواني إلى إنسان متحضر.

تحسس جسده المشعر
مسحه بالزيت، وبالبشر اقتدى
وملابس ارتدى، فصار يشبه البشر

ومن ثم أمسكت به من يده، واقتادته –كما تفعل الأم بطفلها –ذاهبة به إلى الوركاء لينازل جلجامش. وبذلك تفترق المرأة "البغي" عن البطل أنكيدو، بعد أن أتمت دورها بإتقان، فاستطاعت أن توصل أنكيدو إلى الدور الذي رسمته الآلهة له (*).

أما البطل أنكيدو، فقد غابت عن ذاكرته شخصية البغي، ولكنه عاد فتذكرها في لحظة شديدة التوتر في حياته، حين حكم الآلهة أن يقتل أحد البطلين اللذين قتلا الثور السماوي:

قال آنو مخاطباً أنليل
لقد قتلا الثور السماوي
كما قتلا خمبابا الذي كان يحرس غابة الأرز
ثم أضاف آنو قائلاً:
يجب أن يموت أحدهما
فأجابه أنليل
أنكيدو هو الذي يموت
أما جلجامش فسوف لا يموت (27)

وتحولت شمخة إلى مجرد ذكرى إذ بينما كان أنكيدو على فراش الموت، أخذت تتوارد عليه الخواطر والذكريات، فود لو أنه لم ينتقل إلى الحياة المتحضرة وظل في باديته سعيداً خالي البال يرعى مع الظباء وحيوانات السهول، فأخذ يكيل اللعنات للبغي التي زينت له المجيء إلى الوركاء:

تعالي يا شمخة أقرر لك المصير

لعنات لا تبطل إلى أبد الآبدين
سألعنك لعنة كبرى
وتحل بك لعناتي في الحال
فلن يستهوي بيتك أحداً بعد الآن
وتملأ القذارة حضنك النظيف
ويبلل السكارى أبهى ثيابك بالقيء
ويكون تقاطع الطرقات مجلسك
والمزابل مضجعك
وظل حيطان المدينة مكانك
ويدمي الحسك والشوك قدميك
ويلطم وجهك السكران والعطشان
ويعشعش البوم في سقف دارك
وأن لا تشهدي عيداً في بيتك (28)

ومن المعروف أن البغي التي تتصف حياتها بالبؤس والشقاء، قد تنال مودة واستحسان الملوك والأمراء والرجال الأقوياء، فبعد أن صب أنكيدو اللعنات على البغي، نراه يتراجع ويندم على ما بدا منه حين سمع الإله شمش يناديه من السماء: مذكراً إياه بأفضالها:

علام تلعن البغي يا أنكيدو
تلك التي علمتك كيف يؤكل الخبز اللائق بسمة الألوهية
واستقتك خمراً يليق بسمة الألوهية
وألبستك الحلل الفاخرة
وأعطتك جلجامش الوسيم خلا وصاحباً (29)

ويبدو أن أنكيدو ندم على كيل اللعنات للبغي فبدلها بركات إذ يعاود خطابه للبغي:

وسيقدمون لك اللازورد والذهب والعقيق
وسيدعك الكاهن تدخلين إلى حضرة الآلهة
ومن أجلك ستهجر الزوجة، ولو كانت أم سبعة (3).

هنا تنتهي قصة البغي شمخة مع البطل أنكيدو، وتتكرر هذه القصة مع أبطال آخرين رغم أنها تتخذ صوراً وأساليب مختلفة، فالملحمة تعرض صورة البغي ومكانها في المجتمع بأسلوب بليغ، فهي مرغوبة من الملوك والعظماء ومن الشباب والشيوخ،

ومن الأزواج وغير الأزواج، ولكن الأخطر هو أنها مرغوبة أيضاً بالنسبة للكاهن الذي (يدعها تدخل إلى حضرة الآلهة). ولكنها في نفس الوقت ممقوتة ملعونة، لأنها تتسبب في كوارث اجتماعية لا تعد ولا تحصى. فما موقع شمخة من البطل أنكيدو؟

لقد تم التصميم من قبل الآلهة أن يخلق أنكيدو، والآلهة نفسها صممت أن يموت.

واختيرت البغي شمخة لتصطاد البطل في "فخاخ فن المرأة" لأن الصياد "الرجل" في الملحمة لم يكن ليستطيع الإمساك بأنكيدو، وإن فعل ذلك، فسوف يكون الفريسة التي سيفترسها أنكيدو ذو القوة الهائلة التي يمتلكها ككائن "بري". كما لا يمكن أن توكل المهمة إلى امرأة أخرى من صنف الكاهنات أو أي صنف نسائي على جانب من العفة والكرامة في المجتمع، لأن القوانين كما أسلفنا –لا تسمح بهذا العمل لهن أصلاً.

إذن، شمخة "البغي" هي المرشحة الأقوى للقيام بهذا الدور، فسلوكها مؤثر في البطل أنكيدو، فكان بالتالي –على يدها –هو الضحية المرسومة رسماً دقيقاً للوصول به إلى آخر حلقة من حلقات المأساة الإنسانية، مسلمة الدور إلى عشتار، آخر ضلع من أضلاع المثلث النسائي الذي بدأ بننسون (أم البطل جلجامش). ولكأن المؤلف –مؤلف الملحمة –أراد أن يؤكد ضمناً أن موت أنكيدو كان بسبب المرأة التي قادته إلى مصيره، بسبب إغرائها واستدراجها له.

عشتار: سقطة البطل

بعد أن حقق جلجامش انتصاره على خمبابا –بمشاركة أنكيدو –وكسب المعركة في القضاء على الشر الذي يكرهه شمش، عاد إلى الوركاء: غسل جلجامش خصلات شعره الطويلة، ونظف أسلحته، رفع شعره من على كتفيه، خلع ثيابه الملوثة، واستبدلها بثياب جديدة. ارتدى أثوابه الملكية وحزمها. عندما لبس جلجامش التاج، رفعت عشتار العظيمة عينيها، وقالت إذ رأت جمال جلجامش: هلم إلى يا جلجامش وكن عريسي أعطني بذرة جسدك، دعني أصبح عروسك، وتكون زوجاً لي.

وبدأت عشتار تعدد للبطل جلجامش المكاسب التي سوف يكسبها، إن هو قبل الزواج بها، وكيف سينحني له الملوك والحكام والأمراء أمامه، ويقدمون له الجزية، كذلك فهي تذكره بخصوبتها كإلهة للخصب والوفرة، فهو حين يصبح زوجاً لها،

سوف تلد نعاجه توائم وعنزاته تلد ثلاثاً، ولن يكون لثيرانه نظير، إضافة إلى ما ستقدمه له من الذهب واللازورد.

فتح جلجامش فمه وأجاب عشتار العظيمة: "إذا اتخذتك زوجة. ترى ماذا أقدم لك من الهدايا مقابل ذلك؟ أي ألوان العطور والثياب لجسدك؟ أي خبز تأكلين؟ كيف أقدم طعاماً لإلاهة، وشراباً لملكة؟ (31).

إن نبرة السخرية بادية في كلام جلجامش، لكنه تجاوز السخرية إلى التحدي والإهانة فأخذ يعدد مثالبها تجاه عشاقها وأزواجها، ومسخها إياهم إلى كائنات غريبة، مع كل ما قدموه لها من حب وقرابين وهدايا.

بعد أن جرح جلجامش كبرياء عشتار بغطرسته المعهودة، صعدت إلى السماء، وطلبت من أبيها آنو "إله السماء" أن يخلق لها الثور السماوي لينتقم لها من جلجامش:

يا أبي إن جلجامش سبني وأهانني
"اخلق لي يا أبت ثوراً سماوياً
ليغلب جلجامش ويهلكه (32)

إن التحدي الثاني من قبل البطل جلجامش، أكبر من التحدي الأول، لأنه صرع الثور السماوي الذي خلقه كبير الآلهة "آنو" بمساعدة أنكيدو، ثم قذفاها بالفخذ الأيمن، وقال أنكيدو ساخراً ومتحدياً"

لو أمسكت بك لفعلت بك مثل ما فعلت به (أي الثور)
ولربطت أحشاءه بجنبيك.
ثم غسلا أيديهما في نهر الفرات
وسارا راكبين في درب السوق
فاجتمع أهل الوركاء ليشاهدوهما
وصار جلجامش يخاطب (مغنيات الوركاء) ويردد متباهياً:
"من الأزهى بين الأبطال؟
ومن الأمجد بين الرجال؟ (33)

تلك هي "سقطة البطل جلجامش وصديقه أنكيدو "السقطة المأساوية التي كان نتيجتها موت أنكيدو بأمر من الآلهة، عقاباً على قتل "الثور السماوي" وردا على تحديهما للآلهة.

يقول لابات مفسراً سلوك جلجامش إزاء عشتار: "إن النداء الوقح الذي يوجهه

جلجامش في النشيد السادس إلى الآلهة عشتار، هو لا شك، انعكاس تهكمي لمفهوم بائد لعبادة الآلهة. وفي هذا المعنى يقول آخرون، إن لتحدي جلجامش تبريراً ملحمياً صرفاً نابعاً من المطامح والقوى غير المحدودة، ومن عدم الرغبة في التراجع حتى أمام الآلهة. ويتخذ تحدي جلجامش (الذي ثلثاه إله وثلثه بشر) معنى أكثر عمقاً، فهو (يحتج ضد حقيقة أن الإنسان رغم أنه يمكن أن يصبح شخصية بطولية، أجدر من الآلهة، إلا أنه رغم ذلك يبقى كائناً فانياً) (34).

كان موقع الإنسان أمام الآلهة، قد تغير كما يبدو، وتوجد رسائل من العصر البابلي القديم تشير إلى أن المرء قد توجه إلى الآلهة راجياً –وبصيغة مطالبة بل وحتى بصيغة تهديد مبطن –فإن لم يتحقق الطلب المقدم إلى الآلهة، فسوف ينتقم الإنسان بالتوقف عن تقديم الهبات (القرابين) بعد ذلك أو بالتقليل منها، أو بعدم الالتزام بمواعيدها المنتظمة..

لقد اصطبغت علاقة الإنسان بآلهته، بصبغات شخصية، بل وإنسانية جداً، فقد تحولت مشكلة المجموعة إلى مشكلة الفرد.

لكن المنهج الأنثروبولوجي يتناول قضية (جلجامش –عشتار) من جانب كونها تمثل علاقة الرجل "الذكر" بالمرأة "الأنثى"، وأن لها جذوراً تعود إلى عصر سابق على الزراعة حين كان نشاط الذكور بالصيد والبستنة المجزيين، مقارنة بنشاط النساء القائم على القطف واللقط.. والنتيجة تصبح تقابلا بين الجنسين، يجعل من النساء كائنات حبيبة في الواقع ومحقرة جهاراً، وتمثل أيضاً النشاط الذكوري الغني بالتجارب والمغامرات بالقياس إلى النشاط النسائي، بما فيه من طمأنينة رتيبة واهنة، كوهن اللقط والقطف المحكوم بالرياح والأمطار والعاصفة (35).

لكن الذي يطرحه كلنغل، يمكن أن يكون قريباً –نوعاً ما –من الواقع النفسي والديني للفرد في المجتمع البابلي آنذاك فهو يعلل تمرد البطل الإنساني وتحديه بأنه (كان للوعي الفردي ذي الطابع البابلي القديم انعكاسه في الأدب، فأدخل نموذجاً جديداً للبطل، يرمز إلى الإنسان الناجع في الحياة، الرجل الذي حقق ذاته، لكن هذا الوعي المتنامي للشخصية بالذات، والذي أراد الوصول إلى مستوى الآلهة، وجد من الظلم والتعاسة، أن يكون الإنسان في الدنيا –على العكس من الآلهة –غير خالد) (36) وأيامه معدودات، بينما استأثرت الآلهة بالحياة الخالدة، وهي عين المأساة القائمة في التناقض بين الإنسان والإله.



هوامش البحث:

(1) "بعض" هذه المواد القانونية مجهولة النسبة لا يعرف لها مشروع، أشار لها الدكتور فوزي رشيد في (الشرائع العراقية القديمة) دار الرشيد للنشر (بغداد 1979). ص 11.

(2) ظلال الوادي الكبيرة، سلسلة الموسوعة الصغيرة –دار الشؤون الثقافية (بغداد 1992). ص 132.

(3) عقراوي. ثلماستيان، المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين (بغداد 1978)، ص 34.

(4) إن الملك لبت –عشتار كان من أوائل المشرعين وقد سبقت تشريعاته المسماة باسمه، تشريعات حمورابي بأكثر من قرن واحد، ويمثل قانون لبت –عشتار على ما يرجح – حضارة السومريين –تمثيلاً كبيراً ويرى الأستاذ طه باقر أن كلا من لبت –عشتار وحمورابي كان من ملوك السلالات السامية الغربية التي تأسست بعد أن قضى العيلاميون على سلالة أور الثالثة (السومرية العظيمة) بزمن قصير (ينظر باقر، طه، قانون لبت –عشتار ومملكة أشنونا، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد 1987)، ص 10 –11، 24 –25).

(*) إن قانون مملكة أشنونا المكتشف في تل حرمل (تل محمد حالياً) أقدم القوانين المدونة التي جاءتنا من العراق القديم، ويعتبر أقدم شريعة كشف عنها البحث حتى الآن. يقول طه باقر (إذا كان لبت –عشتار قد أصدر قوانينه قبل حمورابي بنحو 164 –175 سنة فيكون زمن قوانين حرمل أي قوانين مملكة أشنونا نحو قرنين من الزمان قبل إصدار شريعة حمورابي ويصادف زمن إصدار قوانين أشنونا العهد الذي استقل فيه ملوكها بعد سلالة أور الثالثة بزمن قليل فكانت الحاجة شديدة لملوك هذه المملكة إلى إصدار شرائع في مملكتهم خاصة بها)، باقر، طه، المصدر السابق، ص 42، 44.

(5) يعتبر الملك أورنمو مؤسساً لسلالة أور الثالثة 2111 –2003 ق. م وشريعته تعتبر في الوقت الحاضر أقدم شريعة معروفة لدى الإنسان. ولكن هناك شرائع عراقية أخرى أقدم من شريعة أورنمو ولكنها لم تصل إلينا بعد، حسب رأي الدكتور فوزي رشيد، (ينظر رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة، دار الرشيد للنشر (بغداد 1979)، ص 25).

(6) إنتو: تمثل كلمة Entu صيغة التأنيث من الاسم الأكدي Enu أي "الكاهن الأعظم" وفي السومرية En ومعنى إنتو "السيدة الآلهة" وكان لها مركز ديني واجتماعي مرموق وتأخذ مركز الصدارة في قوائم الشخصيات المهمة.. وتكون الكاهنة عادة إما ابنة

الملك أو أخته، (ينظر: عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 167).

(7) ناديتو: Naditu صنف من النسوة اللواتي نذرهن آباؤهن إلى المعابد لخدمة أحد الآلهة: ناديتو لشمش، ناديتو لننورتا، لمردوخ، لسن.. الخ ومنع عنهن الزواج والإنجاب، وتعود معظم الكاهنات "ناديتو" إلى الطبقات العليا، وكان من بينهن عدد من الأميرات (ينظر عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 73 –175).

(8) قادشتو Qadistu: مركزهن في المجتمع كان دون الكاهنة ناديتو، وأعلى من المرأة كلماشيتو، باستطاعتها الإنجاب وإرضاع أطفال غيرها من النسوة، وليس هناك دليل أكيد يشير إلى أن الزواج كان مسموحاً لها، وهذا حداً بالباحثين إلى اعتبار هذا الصنف من النساء من بغايا المعبد، (عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 180).

(9) كلماشيتو Kulmasitu:منذورة للإله Votarees وتعود معظم الكاهنات من هذا الصنف إلى العائلات الغنية (عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 181).

(10) شوكيتو Sugeitu: يذكرون من بين اللواتي شاركن في احتفالات الزواج المقدس.. تذكر شريعة حمورابي أن للشوكيتو حق الزواج والإنجاب (عقراوي ثلماستيان المصدر السابق ص 184)

(11) سال زكروم Sal -Zikrum لها علاقة بالمعبد ولكنها ليست منذورة إلى إله معين، ومركزها الاجتماعي دون الكاهنات وبقية المنذورات (عقراوي ثلماستيان، المصدر السابق، ص 185)، (ولمعرفة المزيد عن أصناف النساء يراجع فوزي رشيد، الشرائع، المصدر السابق، ص 152).

(*) المنا والشيقل: من مصطلحات المكاييل التي كانت تستعمل في العراق القديم.

كلنغل، هورست، المصدر السابق، (تنظر المواد حسب تسلسلها في الصفحات 173 – 177)، وينظر:

(12) رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة، المصدر السابق، ص 117.

(13) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 76.

(14) ن. م، ص 86 –87.

(15) باقر، الملحمة، المصدر السابق، ص 86 –87.

(16) يقول لابات في تفسير هذه العلاقة بأن الأحلام المنذرة التي يقصها جلجامش على أمه وجهوده في الحلم لإزاحة صخرة هبطت من السماء بحضور المدينة كلها، هي من المرجح تذكير برتبة اجتياز قديمة كانت اختباراتها تحيل الشاب إلى محارب (ينظر: لابات، رينيه، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، المصدر السابق، ص 162).

(17) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 10.

(18) ن. م، نفس الصفحة.

(*) الإلهة "آي" أو "آية" زوج شمش ، وهي تمثل الفجر مثل الآلهة اليونانية "إيوس" "Eos" والرومانية "أرورا" "Aurora".

(*) حراس الليل هم الآلهة الموكلون بحراسة الليل، والإله "سين" الإله القمر الذي اعتقدوا فيه أنه أبو الإله شمش حيث يتولد النهار من الليل.

(19) رو، جورج، المصدر السابق، ص 279 /لمعرفة المواد القانونية التي تصب في موضوع احترام الأم ينظر رشيد، فوزي، الشرائع العراقية القديمة (في صفحات متفرقة).

(20) تنظر المادة 110 من شريعة حمورابي، (رشيد فوزي) ص 136.

(*) ويختفي ذكر بائعات الخمرة من النصوص المسمارية بعد العصر البابلي الوسيط، مما يدل على أن هذه المهنة أصبحت على الأرجح بعد هذا التاريخ من اختصاص الرجل فقط. (ينظر: عقراوي، ثلماستيان، المرأة دورها ومكانتها..، المصدر السابق، ص 190 "الحاشية").

(21) باقر، طه، لبث –عشتار، المصدر السابق، ص 51 (تنظر المادة 15 من قانون أشنونا).

(22) هذه الإضافة عند ساندرز في السطر الأخير –ليست موجودة عند الدكتور فاضل عبد الواحد، (ينظر ساندرن المصدر السابق، نفس الصفحة).

(23) باقر، طه، الملحمة، ص 137 –138.

ن. م، ص 129.

(24) عبد الواحد، فاضل سومر: أسطورة وملحمة، المصدر السابق، ص 192.

(*) من أسماء المكاييل في العراق القديم.

(25) رشيد، فوزي، الشرائع، المصدر السابق، ص 260.

فكرة النشوء من عالم الحيوان، إشارة إلى عملية خلق أنكيدو في البرية من قبل الإلاهة أورورو (الباحثة).

(26) ترافيموف، ب، س، جماليات ملحمة جلجامش، ترجمة عزيز حداد، منشورات دار مكتبة الصياد، (بغداد 1973)، ص 168.

(*) وهي –من جانب آخر –الصورة التي رسمتها الذهنية الجزرية لصورة البطل في مراحل تطوره النفسي والحضاري وإعطائها تبريراً قدسياً.

(27) عبد الواحد، فاضل، سومر: أسطورة وملحمة، المصدر السابق، ص 210

(28) عبد الواحد، فاضل، الملحمة، المصدر السابق، ص 212.

(29) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 121.

(30) ن. م، ص 122.

(31) ساندرز، الملحمة، المصدر السابق ص 70.

(32) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 112.

(33) باقر، طه، الملحمة، المصدر السابق، ص 116.

(34) إيسبورغ، يا إي، موسوعة نظرية الأدب، القسم الأول، المصدر السابق، ص 175.

(35) شتراوس، ليفي، الأنثروبولوجيا البنوية، ترجمة مصطفى صالح (دمشق 1977)، ص 143.

(36) كلنغل، هورست، المصدر السابق، ص 84.



الآثار الإسلامية
في العراق

■ دراسة : ماري أوديل روسيه ■
ترجمة : د.نورا أريسيان

المقدمة

عندما نستذكر بلاد الرافدين، تتبادر إلى الأذهان فوراً صور السومريين والآشوريين وأسماء مدن مثل نينوى وبابل. في الحقيقة، كانت هذه المنطقة التي تشكل قسماً كبيراً من العراق أرضية للأبحاث الأثرية التي تتناول الحضارات الكبرى. إلا أن التاريخ لم يتوقف عند سومر، فخلال الفترة الحديثة أضحى هذا البلد مهداً لشعوب أخرى.

ماذا نعرف عن هؤلاء الناس، خاصة عن الذين شهدوا صدر الإسلام؟ ماذا كانت الدراسات المختلفة التي أقيمت بهذا الموضوع تحت بطاقة الآثار؟

تلك هي الأسئلة التي تشكل أساس هذا البحث. ورأينا أنه من الضروري إجراء بحث مماثل حول منطقة كانت لها أهميتها في تطور الحضارة الإسلامية.

تشمل الحدود الجغرافية لهذا البحث العراق الحالي، وتمتد الفترة الزمنية من الفتوحات الإسلامية حتى بداية الغزو العثماني. وللإيضاح، تم التأكيد في بعض الأحيان على مواقع هامة تعود إلى ماقبل الإسلام.

يقدم هذا العمل تقريراً للبحث في الآثار الإسلامية في العراق. وقد رأينا من المناسب أن نقيم بياناً يكون قريباً من الكمال من معلومات بيبليوغرافية متوفرة حالياً.

ومن أجل تحقيق التوثيق المطلوب لهذا البحث، قمنا بالاستعانة بأنواع متعددة من الوثائق. إن المؤلفات العامة حول الهندسة الإسلامية تقدم وفي كثير من الأحوال نصباً تذكارية محافظة. وتزود فهارس المؤلفات حول الفترة الإسلامية، بمعلومات أكثر رغم أن القسم المخصص للآثار مقتضب.

فيما يتعلق بالعراق فإن كتاب ر.إيليس(ببيليوغرافيا المواقع الأثرية في بلاد الرافدين) يبين مصادر المواقع.

نشرت الإدارة العامة للآثار في العراق عام 1970، ثم أعادت النشر عام 1976، (أطلساً للمواقع الأثرية في العراق) حيث يتضمن مصادر المعلومات التي أحصتها إدارة الآثار القديمة حول مواقع تتوزع خلال 18 فترة زمنية، وكذلك أدرجت خريطة المواقع الأثرية في العراق.

يعتبر عمل ألبيرت الحايك أحد أهم المؤلفات الهامة لبحثنا هذا الذي يقدم قائمة بالمواقع المدروسة منذ 1842 وحتى 1971. وتتضمن القائمة قسمين: التنقيب والمواقع المنقبة. وقد تم تحديد مكان كل موقع عبر خارطة نشرت من قبل الإدارة العامة للآثار في العراق عام 1959.

الجغرافيون العرب:

كان الحكماء العرب الكبار الذين كتبوا عن العراق في الفترة الإسلامية هم حتماً جغرافيين. في الفترة التقليدية، كانت هذه المنطقة مركزاً للامبراطورية، وأضحت مدن الموصل وخاصة بغداد مراكز فكرية هامة، وتم إنشاء أول مدرسة عراقية للجغرافيين في العاصمة.

كان ابن خرداذبة (820 . 826/ 885 .912) في كتابه "المسالك والممالك" وكذلك اليعقوبي (توفي عام 897) والمسعودي (توفي عام 956)، يعتبرون العراق مركزاً للعالم، وبغداد "سرة الأرض". وهناك تيار آخر لهذه المدرسة يمثله ابن الفقيه (كتب عام 903) وقدامة (القرن العاشر) حيث يقدم مكة مركزاً للعالم.

إن هذه الأعمال وما لحقتها تتعامل مع الجغرافية الوصفية والرياضية والإنسانية والتاريخية. ويعطي ابن الفقيه نظرة واسعة عن بلاد الرافدين مع عناصر متعددة من الفولوكلور ووصف للعمارة.

تتبع مدرسة البلخي الشكل الذي ابتكره أبو زايد البلخي، من خراسان (كتب

عام920) ويتضمن وصف العالم عن طريق المناطق والأقاليم. فقد عاش 8 سنوات في العراق وتم نقله عبر ابن حوقل وأصله من الجزيرة. سافر كثيراً من عام (943 . 973). وهذا السرد يستند إلى المراقبة المباشرة مثل سرد المقدسي (عام 1000). فبالنسبة له، ينتمي العراق إلى الإقليم الرابع، أقليم بابل المعروف بسماته المعتدلة والأخلاق العالية وثقافة سكانه. وبالمقابل، لم ير بعض الرحالة من العراق سوى منطقة البصرة.

من بين الجغرافيين، بين القرن الثاني عشر والرابع عشر يمكن أن نذكر الأدريسي. والجامع المعروف والرحالة الكبير ياقوت الحموي، وكذلك ابن جبير ولد في 1145، وزار الكوفة وبغداد والموصل والجزيرة.

أما بالنسبة لوصفه للمدن فقد كان ينقل عن ابن بطوطة (ولد في طنجة 1304 ـ وتوفي عام 1377) الذي عرف بعلاقاته مع الهند وجنوب شرق آسيا وأفريقيا والعواصم العربية.

على الرغم من أن الجغرافيين، في هذه الفترة، كانوا يعتمدون على الوصف المباشر فكانوا يميلون إلى تلخيص أعمال أسلافهم أكثر من نقل تجاربهم الخاصة، وبشكل عام كان للرحالة العرب ذات النظرة تجاه البلد.

في القرون الوسطى، كان العراق ينقسم إلى منطقتين. العراق الذي يشكل أساس بلاد مابين النهرين يحده من الشمال تكريت على نهر دجلة وهيت على الفرات ومن الغرب حدود حافة السهل، ومن الشرق الحدود الحالية بين العراق وإيران إضافة إلى خط على طول طريق شط العرب وحتى الجنوب. إن منطقة الجزيرة القديمة في شمال العراق مقسمة اليوم بين العراق وسوريا وتركيا.

يبين وصف الجغرافيين المناخ والمسافات بين المواقع والثقافة والدين وكذلك النشاط الزراعي والحرفي. وهناك اهتمام خاص بالمشكلة المتعلقة بالمياه، وبنهري الفرات ودجلة وكذلك بتفرعاتهما وأقنيتهما، وبنهر الإسحاقي، ونهر الثرثار، ونهر المالك ونهر نيل...

إن الوصف الإقليمي الأكثر دقة يعود إلى المقدسي، فالعراق مقسم إلى ست دوائر مركزها الكوفة، والبصرة، ووسط بغداد، وخلوان (إيران حالياً) وسامراء. وبالمقابل، فإن البلد مقسم إلى وحدات سجلات عقارية تساعد على توزيع الضرائب

العقارية.

ولا ينسى الجغرافيون وصف الآثار الهامة والمعابد التي زاروها أو سمعوا عنها، وهي منجم معلومات بالنسبة لعلماء الآثار. يشيرون إجمالاً إلى قوس (إيوان كسرى) وأنقاض بابل ومنحوتات علي (النجف) وحسين (كربلاء) وأنقاض الحيرة وسامراء. ورماد نار إبراهيم (الكوت) ومقابر القديسين في الكوفة والبصرة وبغداد.

إن المصادر الجغرافية المترجمة غالباً في القرن التاسع عشر ضرورية لدراسة الحضارة الإسلامية، وكانت تستخدم بشكل واسع في أبحاث علم أصول أسماء الأمكنة التاريخية.

إن عملية إعادة قراءة المصادر العربية، حيث لم يكتمل نشر بعضها بعد، تحدد جغرافية بلاد الرافدين في عصر القرون الوسطى.

فيما يتعلق بالطوبوغرافية، فقد أقيمت عدة دراسات حول المدن. يروي أ.هوبنغمن في مقالة حول الموصل في (الموسوعة الإسلامية) وتطور المدينة بفضل المعلومات المستقاة من البلاذري وابن الفقيه وابن حوقل والمقدسي والقزويني وياقوت الحموي. وهؤلاء يعطون خاصة دلالات حول بناء الجوامع والمقابر والحصون وتندر المعلومات حول الطرقات والجسور والسكن. إن روايات الجغرافيين تفيد في استخلاص تاريخ النصب التذكارية أكثر من التاريخ المدني.

علم الآثار قبل القرن العشرين:

كان الجغرافيون يترددون على بلاد الرافدين منذ القرن الحادي عشر وكان بعض التجار الأجانب يسجلون رحلاتهم. ومنذ ذلك الوقت، وحتى القرن العشرين وهي تجذب الباحثين. وقد تقلص عدد الرحالة أثناء الفترة الهائجة التي سبقت قدوم العثمانيين إلى الحكم في القرن السابع عشر والثامن عشر، زارها العديد من الرحالة الأجانب. كانت الأنقاض التي زاروها أكثر حماية من الوقت الحالي.

في الحقيقة، يبدو أن هناك إسراعاً في عملية التقهقر. إن نظرتهم تجاه النصب التذكارية تختلف عن نظرة الجغرافيين العرب. لكن ليس بالضرورة أن تكون أكثر واقعية، وما تركوا لنا من مخططات تساعدنا على إعادة بناء بعض الصروح المختفية منذ انتقالهم.

ونجد أن بلاد الرافدين تستقطب الباحثين الذين يبدؤون التنقيب أكثر فأكثر،

وهمهم قبل كل شيء العثور في الأرض على آثار مدائن الكتاب المقدس.

هناك عدد من الباحثين ممن بحثوا في بابل ونقبوا منذ عام 1681. ووصفوا القرى والمدن والمواقع الأثرية. وبحثوا في طرق الإبحار في دجلة واهتموا بالامبراطورية الآشورية. بعد عام 1840 بدأت الحكومات الأجنبية بوصاية التنقيب في العراق. في البداية أرسل الفرنسيون باحثاً إلى نينوى عام 1842. وأول فريق عمل أمريكي نقب منطقة بابل عام 1885. أما الألمان فعملوا في تل الجنى عام 1887. وفي نهاية الأمر، كان الهدف الأساسي لهؤلاء أن يأتوا بقطع متخفية، فجميع أعمال التنقيب التي نفذت في تلك الفترة الزمنية سمحت بتحديد عدد من المواقع التاريخية.

أعمال العراقيين وتشريع التنقيب

بدأ التنقيب المنهجي في العراق بشكل رسمي في 21 شباط 1884 بعد صدور القانون العثماني حول الآثار القديمة. وبعد تشكيل الحكومة العراقية الوطنية في 23 آب1921 تم تشكيل إدارة للآثار القديمة وتم إصدار قانون جديد لوقف إخراج التحف الفنية.

وبعد هذا التاريخ لم يكن باستطاعة المتاحف الأجنبية الحصول على قطع إلا إذا اعتبرت نسخة مضاعفة، وابتداءً من عام 1934 بقيت الاكتشافات الأثرية تحت ملكية الدولة.

أنشأ متحف العراق في عام 1923 عندما قدمت غرترود بيل بعض القطع في السرايا. وفي عام 1926 نقل المتحف إلى مبنى في شارع المأمون وعام 1926 إلى خان المرجان ثم إلى المكان الذي يحتله في الوقت الحالي، في حي شليخيا عام 1963 وتم تشييده في 9 تشرين الثاني عام 1966.

بدأ العراقيون التنقيب منذ عام 1936، وكانوا يهتمون أكثر بالمواقع الإسلامية على عكس ما تفعل الفرق الأجنبية. وبهذا تطمح أعمالهم إلى تركيب خريطة العراق للآثار بفضل جملة من أعمال التنقيب العامة.

في عام 1965، تركز العمل الأساسي على التنقيب أكثر من الحفر، وبدأت تحريات محلية في مناطق مختلفة. وفي نفس الفترة، أعلنت الجريدة الرسمية وضع الآثار تقريباً في 7000 موقع أثري على الأرض، حيث جمعت إدارة البحوث الأثرية

وثائق حولها.

في نهاية الستينات، بقيت بعض المناطق غير معروفة على مستوى الآثار مثل جنوب شرق وجنوب غرب (أور) والمناطق المتاخمة للبصرة.

أظهر العراقيون اهتماماً متصاعداً بالنصب التذكارية في بلدهم بعد ثورة تموز 1968. بعد المشاريع الكبيرة للسدود التي بدأت منذ 1977 توجب إقامة بنية تحتية أهم من السابقة، وانقسم البلد عام 1980 إلى أربع مناطق أثرية شمال جنوب شرق غرب تلتزم بالاهتمام بالتوثيق والتنقيب وترميم الأبنية الأثرية والتاريخية والمتاحف والمعارض وكذلك مشاريع إنقاذ كبرى.

التنقيب بمقياس كبير

ابتداء من بداية القرن العشرين، بدأت الفترة الإسلامية تؤخذ بعين الاعتبار في الدراسات الخرائطية العامة. وقد صدر العديد من الدراسات والمؤلفات بعد عام 1900، بعد عمليات البحث في مناطق بغداد وبابل من قبل الألمان والفرنسيين وغيرهم. فهذه الأعمال أتت بدراسات مرفقة بملاحظات أثنية، كانت وستبقى تستخدم في دراسة أسماء الأماكن التاريخية.

التنقيب الإقليمي

سوف نعرض فقط حملات التنقيب الإقليمية التي سمحت باكتشاف المواقع الإسلامية. في الجدول الآتي شرح للتنقيب الذي يهمنا. هذه المعطيات نسبية لأن بعض التواريخ تقريبية، وفي مجمل الحالات أخذت بعين الاعتبار المواقع الأساسية فقط.

بعض اللمحات حول الأعمال التي نفذت: بين عام (1925 . 1926)، قام الباحث ر.دوغرتي من المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية باكتشاف المنطقة الجنوبية من بابل واستخدم بحثه عام 1953 من قبل توركيلد جاكبسون في عمليات التنقيب عن المنطقة القديمة من امبراطورية آكاد، ثم من قبل روبرت ماك أدامز في 1957 في إطار أبحاث التنقيب العامة في العراق في جامعة شيكاغو وقد درسوا تطور السكان في المنطقة نسبة إلى استخدام نظام الري.

قام الباحثان سيتون لويد وجيرار رتلنكر من جامعة ليفربول بالتنقيب في عام 1938 في منطقة سنقر وكان هدفهما ترميم المواقع في تلك المنطقة للتمكن من

وصلها بمنطقة الخابور في الشرق. وكان رتلنكر مهتماً بالمواقع الإسلامية وقد جهز قائمة بعشرات المواقع.

المنطقة التي نقبت واسم من قام بالتنقيب	السنوات	المواقع الإسلامية
بابل (وارد)	1885	5
مركز العراق (ماسنيون)	1908-1907	14
العراق (هيرزفلد)	1908-1907	23
العراق (بيل)	1909	15
بابل . الجنوب (دوغرتي)	1926-1915	4
سنقر (رتلنكر)	1938	16
أكاد (أدامز)	1957-1953	1
البصرة (رو وسوليكي)	1958 -1953	7
مركز الرافدين (أدامز)	1960-1956	424 -87
كيش (جيبسون)	1973-1970	118
الثرثار	1949	4
القائم	1949	3
دربندي خان	1956	7
حمرين	1980-1977	20
القادسية	1987 -1977	12
ايسكي موصل	1987 -1980	35
شمال الجزيرة	1988 -1987	4

كما نلاحظ، فإن أهم أعمال التنقيب قامت بها المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية. وتمت دراسة النمو السكاني في عدة مناطق من العراق، وقام جاكبسون بتحديد 119 موقعاً، أما أدامز فحدد 867 موقعاً غطى فيها 16 فترة زمنية من 4000ق.م. وحتى 1957م. فهذه المعطيات تعتبر أساساً للأبحاث. وقد ترك أدامز سلسلة خرائط تبين توزيع المواقع حسب الفترة الزمنية لخدمة نظام الري وصرف المياه. قدمت خريطة وحيدة من أجل فترة الاحتلال مابين 637 و1500م. وهي مقسمة إلى فترات: الإسلام القديم والعباسين والسامراء مع تغييب قائمة بأسماء

الأماكن. وبهذه الدراسة استطاع أدامز أن يحيك لوحة السكان وأظهر نظاماً لمنطقة لا حدود لها ومن ثم ألحقها في مجموعة منطقة الرافدين. ولابد من الإشارة إلى أن هذا البحث تعرض لعدة انتقادات ومنها أن الخرائط تبين أنظمة الري التي لا وجود لها على الأرض.

نفذ ماك غوايار جيبسون نفس الأسلوب على منطقة (كيش) في 1966 . 1967 منطقة شط النيل، القناة التي تصل دجلة بالفرات. أقام جيبسون خرائطه تدريجياً من المنطقة المكتشفة عبر المدينة الكبرى لكي يصل إلى التغييرات التي حصلت جراء القنوات وتحديد العمارات القروية. ومن جهة أخرى، كان بأولو كوستا من معهد الدراسات الشرقية في نابولي مخولاً بدراسة المقابر الموجودة على القناة في الفترة الإسلامية.

ورشات الإنقاذ ـ أعمال الري:

في نهاية الخمسينات، باشرت الدولة العراقية بتنظيم ضبط مسار الأنهر وإعادة تدبير نظام الري، كان من الضروري العمل على حسر المياه وبناء سدود وأقنية. ولهذا فإنه تم تنظيم سياسة إنقاذ المواقع الأثرية المهددة بالهدم شيئاً فشيئاً. وحدث هذا الاهتمام في زمنين تماشياً مع مرحلتين من الأعمال الكبرى.

السدود التي أقيمت بين 1913 - 1962

بعد إنشاء السد الأول (هندية) عام 1913 توقفت أعمال توزيع المياه في العراق بعض الوقت. ولم نجد أي إشارة لحفريات للإنقاذ سبقت هذا البناء، وهذا ليس غريباً في هذه الفترة. منذ عام 1948 وحتى 1962 باشرت الحكومة العراقية بسلسلة من 8 سدود. كانت إدارة الآثار مسؤولة عن متابعة التحريات والدراسات ما عدا مشروع (جرمو) في كردستان عام 1951 ومشروع حوض الزاب الكبير عام 1954 حيث أجريت دراستها في المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية. وقد ظهرت آثار الإسلام عند تنقيب حوض الزاب الكبير لكنها لم تكن دقيقة. إن تنقيب حوض (دكان) الذي نفذ في 1957 –1958 من قبل فريق أمريكي ترك 4 مواقع إسلامية. إن المثال الوحيد على أعمال المشاركة العراقية . الأمريكية في هذه السلسلة من الأعمال هو حوض ديالا . نهر أوين شرق بغداد الذي اضطر إدارة الآثار إلى سبر قناة عرفت في العهد العباسي باسم نهر أوين حيث اختفت على أطراف سامراء. وهذا التنقيب سمح بالعثور على مواقع أخرى مثل بني الغنيد. وكما رأينا قام

الأمريكيون بسبر منطقة ديالا، وكافة المشاريع الأخرى تابعتها إدارة الآثار. فمشروع وادي الثرثار سمح عام 1948 بالتنقيب عن 4 صروح إسلامية في المنطقة الشمالية لبحيرة الثرثار. أما (القائم)، على الفرات، بجانب الحدود السورية والأقل أهمية فقد ترك 3 مواقع.

أظهرت أعمال الردم الهامة من أجل تحقيق مشروع تنظيم الفرات الأوسط (مسيب الكبير) في المنطقة بين الخيلى والناصرية 63 موقعاً. وأهم المواقع دخلت في السبر بعد التحقيقات بين 1955 . 1958 ومن بينها خمسة مواقع إسلامية.

بني خزان عام 1962 (رشدي خان)، جانب الحدود الإيرانية، فاضطر الأمر إلى تنقيب سهل شهرزور بين 1955 . 1956. وقد قمنا بفهرسة 11 منشأة إسلامية، حيث تكمن واحدة على (طب بكر أوا)، أهم موقع في المنطقة والذي لم يشمل في القائمة. وقد نشرت هذه الأعمال في كتيب وكذلك في مجلة سومر.

في مجمل الأحوال، نشرت هذه الأعمال بإيجاز، عدا سهل شهرزور وحوض ديالا حيث سنستفيد من بحث أدامز. إن مؤلفات بريدوود التي تعالج فترة ماقبل التاريخ تترك مكانً بسيطاً للإسلام. وفي النهاية، فإن دراسات مشروع (مسيب) أودعت في أرشيف إدارة الآثار، فبات من الصعب تكوين صورة محددة عن الأعمال في الفترة الإسلامية انطلاقاً من أعمال الإنقاذ تلك، فكان مصدرنا الأساسي قائمة البيرت حايك التي تقدم المواقع الأساسية فقط.

السدود الكبرى 1977 - 1988

السلسلة الثانية من المشاريع الكبرى التي تتجه لتحسين التحكم بالمياه في بلاد الرافدين تتضمن بشكل أساسي 3 سدود وهي:

(حمرين) على ديالا و(قادسية) على الفرات وسد (اسكي موصل) على دجلة. فقد اختلفت الأعمال في تلك المدن حسب التنظيم. في الحقيقة، تم الإعلان مع هذه الأعمال عن رؤية جديدة للعمل بالآثار في العراق. واتبعت العراق مثال بلاد أخرى في الشرق الأوسط وقامت بدعوة لمشاركة دولية لأول مرة، وتعاونت الفرق الأجنبية في المشاركة مع المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث.

أما الفرق العراقية الأخرى فقد كانت تابعة لجامعة الموصل أو جامعة بغداد.

لقد استثمر العراق كثيراً في ورشات الإنقاذ هذه وأخذ على عاتقه قسماً من التكاليف الإدارية للفرق الأجنبية كالإقامة والعمال. وقد اختارت هذه الفرق أماكن عملها بنفسها وقد نشرت نتائج التنقيب المختلفة في مجلات العراق.

جرت أعمال الإنقاذ في حوض حمرين بين 1977 . 1982 وعين مدير المنطقة مشرفاً على المشروع. وكانت الدول الممثلة: النمسا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإيطاليا واليابان. كانت دراسة حوض حمرين تشكل اهتماماً خاصاً لأسباب عدة. فموقعه في مركز المساند الجبلية الأولى لزاغاروس يشكل وحدة جغرافية مثيرة للاهتمام. إن التفرعات المتعددة التي تروي ديالى تشكل منطقة جذابة في بلد صحراوي. وفي النهاية، كانت طريقاً هاماً للعبور إلى إيران. في القرون الوسطى، كانت طريق القافلة باتجاه الحسين تقتبس من الوادي. وعلى سطح الحوض أي 450 كم مربع أحصي 75 موقعاً وقد تم احتلال 20 موقعاً في الفترة الإسلامية، وأظهرت حفريات مختلفة حركة تطور تواجد الإنسان في المنطقة.

سمح مشروع حوض حديثة لتدخل علماء الآثار بين 1978 . 1984. وقد تم تغيير تسمية المشروع إلى القادسية عام 1983. كانت الفرق تأتي من ألمانيا وكندا وبريطانيا وإيطاليا واليابان وبولونيا. وقد تم تنقيب ضفاف نهر الفرات وثلاث جزر كانت قد خبأت الفترة الإسلامية. كما وأجريت أعمال ترميم في هذا المشروع. فقد أعيد بناء مئذنة جامع في قرية جديدة وحفر 12 موقعاً إسلامياً.

بدأ مشروع حوض (اسكي موصل) عام 1981 واستمرت الأعمال من 1985 . 1986. وقد احتوى هذا المشروع على أكبر عدد من حفر الإنقاذ في الفترة الإسلامية. وقد شملت نتائج الحفريات على أبنية مختلفة كالسكن والمقابر والأبنية الدينية وغير الدينية. وعند تحليل ذلك نتبين أنه في حوض حمرين أكثر من نصف المكتشفات كانت مقابر ومن بينها المقابر القديمة الإسلامية. وفي ورشات القادسية لم يسجل أي نموذج على المستوى الإسلامي.

وعلى العكس، نرى اهتماماً بالأبنية الدينية السكنية. أما فيما يتعلق باسكي موصل فقد تم التركيز على الأبنية الكبرى مثل الخانات أو القصور ولم يتم حفر أي بناء ديني. هذه المنطقة التي عرفت السيطرة البيزنطية فترة أطول أبقت على سكان مسيحيين، وقد عثر على كنائس. وفي جميع الأحوال، كل هذا يدل على الاهتمام بالآثار الإسلامية. فهي مهملة في ورشات حمرين وحاضرة في القادسية وبلغت الحد

القياسي في اسكي موصل. نفذ في 1987 . 1988 مشروع الري في شمال وشرق الجزيرة. وقد أنجزت دراسة حوله مما سيسمح بتحديد نتائج الأعمال في حوض اسكي موصل.

أعمال الإنقاذ الأخرى

كان من الضروري إتمام دراسات أخرى من أجل تطور الاتصال والمراكز المدنية. وبذلك، نفذت حفريات الإنقاذ في الفلوجة أثناء إنشاء سكة الحديد في بغداد. ومن جهة أخرى فإن إنشاء الطريق الدولي الذي يصل شفوان والبصرة ببغداد وسوريا اضطر إلى تدخل علماء الآثار الإسلامية عبر 4 ورشات. فقد تم التنقيب عن مواقع قيشان درويش وغور الحميد التي تبعد عن بغداد بـ35 كم عام 1980 . 1982. وتابعت الأعمال في منطقة البصرة في 1988 على موقعين، وقد تركت هذه الأراضي أبنية للسكن.

إن امتداد المدن فتح المجال أمام أعمال الإنقاذ غير المنتظمة. ففي بغداد سمح بناء مركز الكهرباء بحفر تل أبو شحيير. أما مد المدينة نحو الشرق بعد تبني مشروع (مدينة بغداد الحديثة) عام1946 فقد أدى إلى إجراء عدة دراسات لكن ليست من الفترة الإسلامية. وفي الجنوب تطور مدينة البصرة أعطى المجال لأعمال إنقاذ هامة من قبل أ.العزاوي.

الدراسات المبرمجة ـ تنظيم المدن

إن الأبحاث المتعلقة بتنظيم المدن مبينة على 3 أقسام: في البداية أعمال الترميم العراقية ثم دراسات التطور المدني، عواصم موجودة منذ وصول الإسلام أو أنشأت من قبلهم وأخيراً أعمال المدن الأخرى.

أعمال الترميم: تتعلق أعمال تنظيم المدن في القرون الوسطى التي نفذها العراقيون غالباً بترميمات حسب التطور السياحي. أظهرت الحفريات أو بالأحرى أعمال التنظيف التي سبقت الترميم دراسة تاريخية وجغرافية حول عناصر مختلفة لذات المدينة يمكن أن تستخدم في دراسة تطورها.

في بغداد، سمح ترمي (خان مرجان) في أيار 1973 بالعثور على مستوى الأرض الأصلية. اقتضت الأعمال الضخمة لإعادة (المدرسة المستنصرية) التي دمجت على مر السنين مع السوق ورممت عام 1945 و1960 إلى تحليل كامل

للمبنى حيث نفذه هـ.شميت. وقد اتخذ بيانات مصورة بين 1962 . 1963 أساساً لدراسته الأثرية. ثم درست سليمة عبد الرسول قصر العباسيين الذي رمم الآن. وقام طارق الجنابي بدراسة وتحليل الباب الوسطاني، الأثر الوحيد عن تحصين المدينة الشرقية. واهتم هؤلاء بالديكور ولم يحللوا هذه الصروح في إطار تطور المدينة.

إن أعمال الترميم التي سبقت الحفريات خارج بغداد لم تكن كثيرة: ففي البصرة أعطى خالد خليل حمودي العزامي بيانات أثرية في ترميم مسجد (القواز) وقام عبد الستار العزاوي بحفر (ذو الكفل) قبل ترميم المسجد.

العواصم:

نقدم في هذا القسم الدراسات التي أنجزت حول مدينتي سيسفون والحيرة، على الرغم من أنهما لم تلعبا دور العواصم في الفترة التي تهمنا، حيث أن دراسة المدن الكبرى المكتشفة عبر المسلمين عند وصولهم إلى العراق تبدو مهمة لتحليل الحضارة الإسلامية.

سيسفون

سميت منطقة سيسفون في العصر الإسلامي من قبل الجغرافيين العرب بالمدائن. وحسب التقاليد فهي مؤلفة من 7 مدن وحسب اليعقوبي كانت خمسة. من الطرف الشرقي (المدينة العتيقة) سميت سيسفون أيضاً بالقصر الأبيض الشهير الذي اختفى في القرن العاشر. و(اسبنبور) على بعد كم ونصف جنوباً و(إيوان كسرى) و(رومية) حيث أقام الخليفة المنصور فترة من الزمن. ومن الطرف الآخر للنهر يقع (بيه أرداشير) أو(بهوراشور) مدينة أرداشير التي سميت فيما بعد (كوخا) أو (كوشا) ثم (تل بارودا) وأخيراً سبط (بلس اباد) وقد أقام الفرس والساسانيون مدينتهم مكان العاصمة اليونانية القديمة (سيلوسي) التي أنشأت عام 300 ق.م.

إن التحدي الذي يواجهه الباحثون هو محاولة معرفة المدن المختلفة مع العلم أن مسار دجلة اختلف خلال الأزمنة. خلال عام 1968 . 1969 أظهر الفريق الألماني وجود الإسلام في (شوش) على تل بارودة ثم على (تل المعرض) عام 1931 . 1932. عمل الأمريكيون هناك فترة ستة أشهر ولكنهم نشروا القليل. بدأت الحفريات من جديد عام1967 مع الفريق الإيطالي، فقام الباحثون الألمان والأمريكان

بتحليل تطور المدن من العهد السيليوسيدي حتى العهد الإسلامي عبر إعادة تفسير ودراسة المادة. وكانوا يعملون في مناطق قريبة من طق كسرى وتل عمر.

وفي الأعوام 1981 . 1983 عملت في المنطقة فرق من المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث.

الحيرة

تم فتح عاصمة اللخميين، الحيرة، في 633 من قبل الفاتحين المسلمين. وقد اشتهرت بأديرتها، وجاء ذكرها من قبل الجغرافيين العرب مثل ياقوت في معجم البلدان. وبقيت حتى القرن العاشر رمزاً للعظمة المسلوبة. وعرفت المدينة بقصورها كقصر الصدر والخورنق.

جرت الحفريات الأولى في 1931 . 1932 من قبل باحثين من جامعة أوكسفورد. قاموا بسبر المدينة واستخلصوا مبنى كبيراً بطابقين لم تعرف هويته وكنيستين. وأقيمت عمليات على مواقع مجاورة.

في عام 1959، كان فريق من إدارة الآثار يعمل في الكوفة فقام بسبر (أم عرفة). وفي عام 1972 قام فريق إيطالي . عراقي بحفر مقبرة قديمة ساسانية تحمل معالم إسلامية. وفي النهاية، عمل فريق فرنسي برئاسة أوليفيه لوكونت على هذا الموقع ولكن بوقت محدد بسبب قرب التجهيزات ذات الأهداف الاستراتيجية للحكومة العراقية. ومع ذلك، استطاع الفريق جمع بعض قطع الخزف من فرن خزفي لدراستها لاحقاً.

إن إشعاع الحيرة في فترة ما قبل الإسلام واختيار موقع الكوفة أول عاصمة للمسلمين إلى جانبها والملاحظات التي سجلناها على أرض الواقع تسمح لنا بالتفكير أن هذا الموقع لعب دوراً هاماً في تكوين الهندسة الإسلامية.

الكوفة:

أنشأت مدينة الكوفة منذ عام 638 من قبل سعد بن أبي وقاص وأصبحت مقراً للخليفة الراشدي علي بن أبي طالب (656 . 661). من أوائل المهتمين بالكوفة لويس ماسينيون الذي قام (1935 . 1940) بشرح المخطط حسب المعطيات الواردة في بناء المدينة. ثم قام هشام جعيت بمتابعة العمل واستخدام نتائج الحفريات وقام بدراسة بروز المدينة الإسلامية. ثم حصر الحفريات لدار العمارة ما عدا بعض

الأسبار في المدينة. وقد نشر محمد علي مصطفى نتائج الأبحاث في مقالات بين 1954 . 1964.

في عام 1067 أعاد كاظم الجنابي دراسة ماسنيون وقدم نتائج الحفريات لدار العمارة والجوار. انحنى الكثيرون أمام مخطط دار العمارة، أقدم قصر مدني تم التنقيب عنه حتى اليوم، محاولين تفسير بدايات الهندسة الإسلامية أو فك المخطط البدائي لتطور المدن، ولكن من المؤسف أن لا يتوفر سوى هذا المخطط لأول مدينة إسلامية في العراق.

بغداد

إن الدراسات العامة حول مدينة بغداد متوفرة. حاول غاي لوسترانغ عام 1900 إعادة تركيب طوبوغرافيا بغداد في العهد العباسي انطلاقاً من كتابات الجغرافيين. وإن كتابات اليعقوبي وياقوت هي الأكثر استخداماً وكذلك ابن جبير وابن بطوطة، حيث تشمل ملاحظات عديدة حول طوبوغرافيا المدينة والأبنية الرئيسة.

يعتبر (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي دراسة أساسية لكنها لا تتعدى القرن الحادي عشر. قام المقدسي بتحليل تطوير المدينة في تلك الفترة وأول دراسة حول المدينة كانت لنيبور حيث يظل تاريخه صحيحاً. أما ما كتب في رحلات باكنهام وولستد التي نشرت عام 1827 و1840 فهي قيمة أيضاً ولكنها تفتقد إلى المصادر التاريخية.

يعود أول تنقيب في بغداد إلى فيليكس جونز الذي زار الآثار وكتب ملاحظاته حول أسمائها وأماكن توضعها حتى الأقل أهمية. وتجدر الإشارة إلى أن أعمال العراقيين أنفسهم عن بغداد تعد هامة مثل أ.سوسى وم.جواد وم.ألوسي.

كانت مدينة بغداد في القرون الوسطى تتشكل من قسمين كبيرين: على انعطاف دجلة على الضفة الغربية، المدينة الدائرية المنصور، ومن الشرق المدينة المحصنة من قبل المستظهر عام 1095. وتم المحافظة على باب المدينة وهو الباب الوسطاني. وهدم باب الطلسم أثناء الأعمال عام 1917 وأعيد بناؤه في الثمانينات. وعلى جانب النهر تقع المستبشرية وقصر الخلفاء العباسيين. يضم إلى قسمي المدينة عدد من الأحياء مثل رصافة وشماسية ومحرم ومحول والكرخ وبعض الجسور.

قام ج.لاسنر عام 1970 وأ.لابيدوس عام 1973 بدراسة تنظيم مدينة بغداد في بداية القرون الوسطى من العهد العباسي. وقد تطرق لابيدوس إلى المدينة ما قبل الإسلام وبروز نوع جديد من المدن بعد الفتوحات. فبرأيه كانت مدارس القانون تلعب دوراً هاماً في إعداد مخطط المدينة. فهناك دراسات حول بغداد حسب الأحياء أو أنواع الأبنية. وقد اهتم الحديثي عام 1973 بتغذية المياه من الضفة اليمنى، أما لويد والنقشبندي فقد قاما بدراسة المدرسة المرجانية.

أجريت دراسات على المساجد من قبل س.ألوسي في 1968. وقام معهد الآثار العراقي . الإيطالي وإدارة الآثار بدراسة كاملة عام 1971، فقاموا بفهرسة الآثار الإسلامية التي تم الحفاظ عليها في بغداد، ولم يكن أي كتيب أو فهرس كامل يضم الآثار المختلفة. كانوا ينظمون أبحاثهم حسب الأحياء ويعيرون اهتماماً خاصاً بالحمامات. ويبدأ وصفهم لحي الكرخ ثم الرصافة، وقاموا بتسجيل وصف وتأريخ البناء إضافة إلى الصور.

قام البولوني أ.باسيتا بدراسة حي الكاظمية، وبالأخص اهتم بالأبنية المتواضعة المتجمعة حول المسجد الشيعي الذي دمج مع مقبرة قديمة من القرن التاسع، وعلى الأغلب يعود تاريخ هذا المسجد إلى بداية القرن السادس عشر.

درس باسيتا هذا النمط من المدينة الذي عمم بالمسجد وقارنها مع أمثلة مختارة من المغرب حتى إيران، وتبين دراسته الحالة الأثنية أكثر من الأثرية.

نرى أنه لم يكن من السهل دراسة المدنية في بغداد في القرون الوسطى. فإن الأعداد الضئيلة من الآثار المحفوظة من هذه الفترة وغياب الحفريات يحد من إمكانية تجديد المعلومات.

سامراء

أنشأت مدينة سامراء في عام 834 من قبل المعتصم ابن هارون الرشيد الذي خلف أخيه المأمون. وقد أعطى اليعقوبي تفاصيل عن تنظيم المدينة الجديدة. من بين الخلفاء الثمانية الذين تعاقبوا كان المعتصم أكثرهم بناءً وكذلك ابنه المتوكل الذي قام بتوسيع المدينة نحو الشمال.

كما أشرنا سابقاً فإن رواد الآثار هم فرنسيون، حيث كان لويس دو بيليه ولويس ماسينيون أول من زارا سامراء. لقد نفذ السبر الأساسي من قبل فيولي في قصر

الخلفاء عام 1907 ثم استكمل إيرنست هيرزفلت الحفريات حتى الحرب العالمية الأولى. عمل أيضاً على المسجد الكبير في بالكوارا وقصر العاشق في تل عليقق وعلى عشرة بيوت قرب المدينة الحالية. وترك لنا المخططات الأولية للمدينة. وبقيت أعماله لفترة طويلة المصدر الوحيد لفترة العباسيين. إن حفريات العراقيين في سامراء جرت في 1936 و1939 في مدق الطابول وشارع العظم في كراينا وكذلك في حويصلة في الطرف الآخر من دجلة الذي اختفى. بدأت أعمال الترميم عام 1936 في أبو دلف ثم استؤنفت عام 1944 في المسجد الكبير في الملوية وفي قصر العاشق وفي قبة الشليبية على الضفة الشرقية من دجلة.

في عام 1963 حفريات أ.حميد أظهرت حياً للسكان في غرب المسجد الكبير. في عام 1978 استؤنفت عمليات الحفر والترميم وظهرت منطقة سكنية من عام 1979 . 1982 وكذلك قبر أبي دلف بجانب المسجد الذي يحمل نفس الاسم وأجريت له ترميمات جديدة.

يعمل الفريق البريطاني ألاستر نورتج منذ عام 1981 في سامراء. وقد وضعت إدارة الآثار مشروعاً (لتطوير المدينتين التوأم سامراء والمتوكلية). ووضع الفريق مخططه حسب معطيات الصور الملتقطة من الجو في العشرينات وحتى الخمسينات. وأجرت حملات تنقيب على الأرض عام 1983 . 1989 مما سمح بتحديد عدد من مخططات أبنية وتأريخ أحياء مختلفة. حيث استطاع أن يبرهن أن الاحتلال امتد من عصر ماقبل الإسلام وحتى القرن الثالث عشر. وبرأيه أنه من الواضح تواجد معسكرات حول القرى الموجودة سابقاً وليس بشكل عبثي. لقد حاول تحديد خطة تطور المدينة في سامراء وترك دراسات بحسب الأحياء أو تركيبها.

ونجد أن الأبحاث المدنية الوحيدة التي استخدمت الآثار بشكل حقيقي هي دراسة سيسفون التي تقدم رؤية تأريخية لتطور المدينة، وكذلك دراسة سامراء التي تعرض تقديماً أفقياً للموقع وهذه الدراسات تحدد شيئاً فشيئاً تطور المدينة على مر الزمن.

المدن الكبرى الأخرى

عند قدوم الإسلام، لم يكن هناك أمام نينوى سوى دير أنشئ عام 570م. وفي القرن العاشر كانت مدينة الموصل تملك سوراً نصف دائري ومسجداً تم ترميمه عدة مرات، وقد عرفت تطوراً هاماً في زمن سيطرة السلاجقة في 1127.

وقد نشرت أغلب الدراسات عن المدينة في مجلة سومر من قبل سعيد الديواغي عام 1947 . 1964. وكانت تشتمل على جدار وأحياء ومدارس وقلاع. وتم تخصيص العديد من الدراسات حول المساجد أو مقابر القديسين. وحسب معلوماتنا، هناك دراسة واحدة حول المدينة في النجف وهي عبارة عن تحليل لجدران التحصين.

أنشأت مدينة واسط في 702 . 705 من قبل الحجاج، على منتصف الطريق بين البصرة، الكوفة والحلوان. جاء ذكرها عند الجغرافيين العرب جراء موقعها من دجلة ولكن بسبب تغيير مجرى النهر أضحى وصف المدينة غير صحيح. وقد جرت أعمال الحفريات بعد تحديد الموقع. وقام فؤاد سفر بأبحاث حول المساجد مثل جامع الحجاج الذي ضم إلى دار العمارة، ويضم البحث مخططات لأبنية تعطي لمحة عن الخزف هناك. درس المقديدي حَسَبَ تلك المعطيات مخطط المدينة في الفترة العباسية، وتأتي أعمال التنظيف والترميم لتهيئة المدينة من أجل استثمارها سياحياً.

أنشأت البصرة في القرون الوسطى عام 635 وكانت ميناء هاماً للتجارة على الخليج العربي ومدينة لعبور المسافرين. قام لويس ماسينيون، كما سبق بتفسير مخطط المدينة معتمداً على النصوص. وبدأ رالف سوليكي بالحفريات في الزبير في نيسان عام 1953، وحدد مرحلتين أساسيتين للاحتلال في تحليله لمسجد الإمام علي والعديد من المنشآت السكانية. درس أ.ناجي ود.علي نمو الاقتصاد في المدينة عبر أسواقه وحللوا توضعات الأسواق وتكوينها.

تعتبر الأعمال التي أنجزت على المدن الكبرى في بلاد الرافدين في القرون الوسطى أقل مما أنجز على العواصم وتعتمد بالأخص على النصوص. والحفريات التي تُنفذ تتعلق بالآثار الرئيسة كالمساجد أو القصور وتقل على المنشآت السكنية أو المناطق الحرفية عدا حالة البصرة. ولهذه الأسباب كان الباحثون يميلون لتحديد مناهج أخرى لتحليل المدنية، فمثلاً أوليك كرابار يعرض المدينة بناء على المساجد.

الهندسة

سوف نورد ثلاثة أنماط من البناء: الأبنية المحصنة كالقصر والخان والأماكن المحصنة. والأبنية ذات الطابع الديني، المساجد والمدارس القرآنية والمقابر والأضرحة، وأخيراً هندسة البيوت.

الأبنية المحصنة.

تجتمع تحت هذه التسمية كافة الأبنية التي يتسم شكلها الخارجي بطابع التحصين. وكان لفظ القصر يستعمل من أجل الدلالة على ذلك ويمكن لتلك الأبنية أن تستخدم لأغراض السكن أو التجارة أو الدفاع.

هندسة القصور

لقد تمت دراستها في منطقة المدينة مع دار العمارة في الكوفة. الدراسة عبارة عن مثال وحيد لقصر مدني في العصر الأموي أطلق بأكمله في العراق مما أثار التعليقات. بالنسبة لروسن أيالون هذا النوع من المخططات، سور مضاعف على مسند نصف دائري وتوزع محوري للأقسام الهامة كالباحة (الإيوان) وصالة الاستقبال، سوف تؤثر على الهندسة الأموية.

لم يتم حفر دار العمارة في واسط بالكامل لكنها تعرضت للسبر مما سمح بتحديد أنها، كما في الكوفة والبصرة، وصلة من القصر إلى المسجد منضدة على حائط القبلة.

لقد اختفت قصور بغداد كلها ولم تعرف مخططاتها، لكن وصلنا مقال ج.سورديل حول الفن في بغداد في الفترة العباسية حيث يعدد القصور المختلفة التي وجدت في بغداد.

يعود الفضل في معرفة قصور العباسيين في العراق إلى أعمال التنقيب والحفريات لموقع سامراء. تعد قصور الخلفاء على الأرض سبعة. على النهر، للمعتصم (الجوسق الخاقاني) وللمتوكل (قصر الجعفري) وبالكوارا بناه المتوكل لابنه والقادسية. وعلى الضفة الغربية الحواصلية عرفت كقصر المعتصم وقصر العاشق بني عام 878 من قبل آخر خليفة في سامراء المعتمد والاستبلاط. يمكن لمقر سكن آخر أقل أهمية أن يعتبر قصراً، ويقع على سور أشناش وسور غبيرية والمشرحة في شمال شرق القادسية، وقد كانت بقايا من أهل المقامات العليا في الدولة.

قام فيولي ثم هيرزفلت بالحفريات في الجوسق الخاقاني. وقام الأخير بأبحاث في بالكوارا وقصر العاشق. عمل العراقيون عام 1930 في الحواصلية في المنطقة المركزية فقط. وقد تمت الحفريات في القصور الأخرى من قبل نورترج. إن أكبر مسافة لتلك القصور تصل إلى 500 متر على وجه التقريب، تطل على دجلة حيث الضفة مفروشة بالحدائق والأحواض. وتظهر عدة أشكال لكن يغلب عليها الشكل

المربع مع ترتيب محوري في الداخل. لم يهيأ قصر العاشق، الأكثر تواضعاً، كالآخرين بسور ضخم كي يحمي الحدائق والتوابع. إن لاثنين من هذه القصور مخططات خاصة وهي الاستبلاط المطولة مع ترتيبات داخلية بشكل متناظر، والقادسية الذي لم ينته وهو مسور بشكل مثمن. بنيت هذه القصور خلاف فترة 56 سنة عندما كانت سامراء عاصمة، مما يبين عزم كل خليفة على محو سلفه وإضافة أشياء معينة على أبهة الفترة الأولى للعباسيين. لم تكن القصور المنعكس الإيجابي لهندسة القصور، إنها تمجيد لعبقرية المهندسين في سامراء.

كان قصر الأخيضر يعتبر القصر الوحيد في صحراء العراق لمدة طويلة ويشك في تأريخه. فحسب دراسة ورنر كاسكل أقيم القصر عام 762 من قبل عيسى بن علي وكان يسمى قصر المقاتل. ويبدو أنه يخلط مابين الحصن الذي اكتشفه ب.فينستر وشميت عام 1973 في تل الأخيضر. فبالنسبة لكروسل أقيم القصر عام 775 بعد تقاعد عيسى بن علي وقبل أن يعتبر الخلفاء سامراء كعاصمة عام 836.

يمكن ذكر دراسة لويس ماسينيون حول الأخيضر ثم جاء كروسل عام 1930 . 1936 ليضع مخطط القصر. فتح أول سور من أربعة مداخل ويقع السور الثاني على الجهة المعاكسة. وفي الداخل فقد شيد البناء بشكل محوري. ويقود المدخل إلى القسم المركزي المؤلف من سطحين ومحاط بممر ثم باحة ومنطقة المسجد، وقد بنيت أربع شقق حول الباحات الثانوية.

أخلت المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث عام 1975 منشآت ملحقة في شمال الحصن. في عام 1980 . 1982 تم حفر حصن ذي سطح قائم الزوايا على بعد 300 متر شمال غرب. وكانت أساسات السور ذات المساند الدائرية من الحجر. وقد ظهر بالقرب مبنى آخر بقاعات حول الباحة من الفترة العباسية. إن الاكتشافات في السنوات الأخيرة تجعلنا نفكر بأن هذه الأبنية المؤرخة من العهد العباسي ليست كما نظن (قصور في الصحراء) معزولة حيث بنيت إرضاء لرغبة وذوق أحد الحكام. ويجب أخذ الأمور بشمولية كي نعبر بشكل صحيح. فمن الممكن أن يكون قصر المقاتل في الشمال على الطرف الآخر من وادي عبيد أهمل بعد بناء هذا القصر.

لقد تمت حفريات على بيوت أقل أهمية في نيليا وخربة البستان وعنبة، حيث وجدوا قطعاً متجمعة اعتبرت كقصر في الصحراء من العهد الأموي. ويعود مبنى

سومقا إلى نفس الفترة الزمنية وكذلك الأمر بالنسبة إلى أم عارف الموجود في منطقة الحيرة. وأخيراً، تعود العناصر الجديدة والمفيدة في دراسات القصور العراقية إلى أعمال نورتج في سامراء.

الخانات:

يقدم كارل مولر في عمله حول خانات الشرق الأوسط نشر عام 1920 نوعين من الأبنية: خانات الطرق وخانات المدن. والمثال الوحيد لخانات المدن هو خان مرجان ويوجد في بغداد وقد بني في القرن الرابع عشر. وهو عبارة عن غرف متفرقة تتوزع على طابقين وتفتح على باحة واسعة. تمت دراسته من قبل المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث قبل ترميمه عام 1972.

يبنى الخان أمام جدار سور بشكل مربع مع مساند نصف دائرية ويسند غرفاً تطل على باحة مفتوحة السماء ومسجداً صغيراً يشارك في المبنى. هذا هو نموذج الخان الذي رآه مولر في خان حرنينا.

درست جامعة البصرة في تل الشويبة بناء يتضمن عند المدخل إيواناً وعدداً من الغرف المرتبة.

لقد تم اكتشاف العديد من الخانات في حوض اسكي موصل: في حربوك وبكاك وخربة مشرفة ومشفينة.

وجد ج.رتلنغر عدداً من الأمثلة في منطقة سنغر في اسكي موصل وكوتشوك كوبرو وحرية الخان حيث يعود تاريخ بناؤه إلى بين 1234 . 1258 حسب تقرير من أبو ماريا يشار فيه إلى ياقوت. فكل هذه المنشآت بنيت من الحجر وتعود إلى القرن الثالث عشر.

لقد درس كل من باربرا فينستر وجورجن شميدي المنطقة بين الفرات والصحراء السورية. وكان هدفهما عام 1973 تحديداً على أرض الواقع للأبنية المختلفة المحصنة والمذكورة من قبل الجغرافيين العرب. فقد زار العديد من باحثي الآثار والرحالة في بداية القرن عدداً من المناطق التي ذكرها ياقوت مثل ماسينيون وميسل وبيل حيث وضعت العديد من الفرضيات في إطار تاريخي . جغرافي. في الحقيقة شكلت هذه المنطقة في الفترة ما قبل الإسلام طريقاً دفاعية ضد قبائل الصحراء العرب السوريين، ولكن بعد ذلك، أضحت من الطرق الرئيسة لمرور القوافل التي

تضم الخليج العربي مع البحر المتوسط. إن اختيار الطرق لا يعتمد فقط على الشروط الجغرافية بل على التجهيزات الأولية.

وفي هذا المنظور تمت دراسة المواقع المختلفة: بحر الملح وتل ضبة وأبو غير وتل الحرايب ونقرة السلمان وتل أب صخر وقصر شمعون وتل الأخيضر. أما عطشان ومجيدة وبير النص وأم قرن وطالحة وحمان فهي محطات على طريق مكة.

كل هذه الأبنية لها شكل مربع مع أبراج ووسطها نصف دائري. ويتوضع المدخل في مركز أحد الجوانب. والقاعات حول الباحة أحياناً على صفين ولا تحتل بالضرورة الأوجه الأربعة. ويمكن أن يكون المدخل محصناً. ترافق هذه الأبنية تجهيزات مائية وأحواض وآبار وخزانات وأقنية.

بالنسبة لفينستر فإن هذه الأبنية حتى ولو كانت تذكرنا بخانات إيران إلا أنها ليست للعامة بل شخصية. وتقريباً في كل الحالات، فإن هذه القصور التي تعود إلى فترة الأمويين أو بداية فترة العباسيين فقد أعيد بناؤها فوق أو إلى جانب المنشأة الأولية من ذات الطراز ولكن بمواد مختلفة.

تقدم هذه الأعمال مخططات لمواقع مختلفة وتثير الاهتمام بمعطياتها ويبقى النقاش مفتوحاً حول استخدامها. لقد كانت دراسة الخانات معمقة أكثر من أشكال الأبنية الأخرى.

الساحات المحصنة:

إن هذه المنشآت المحصنة تحمل طابعاً دفاعياً بحتاً. لقد ذكرت قلعة الموصل عدة مرات من قبل الجغرافيين العرب. وبحسب المقدسي (985 . 986) كانت تسمى المربعة. وبحسب ابن جبير (1148) القصر . القلعة وتقع على مرتفع من المدينة وتسمى ناش طبية، وقد ذكر ياقوت عن دمارها في عام 904.

لقد أضحت ثلاث مناطق محصنة موضوع بحث لعلماء الآثار. وقد كشفت الحفريات في ياسين تبة عن حصن من صفين من الغرف على طرفي الباحة. في أربيل عام 1984 تم تشكيل (لجنة تطوير قصر أربيل) ولكنها اهتمت أكثر بعمليات الترميم وحددت أعمال الآثار بالتنظيف. من المرجح أن تكون قلعة مدينة القنيطرة والتي قدمها هارون الرشيد إلى زبيدة كهدية، من العهد ماقبل الإسلام، وأقيم السور من الطرف المقابل لدجلة وله مساند بزوايا قائمة، ولم يدرس هذا النوع من الأبنية

حيث غالباً ما يعيد الأشكال القديمة.

الهندسة الدينية والجنائزية

المساجد

أقام كروسل مخططاً لمسجد المنصور حسب النصوص، حيث يقع في مركز المدينة الدائري في بغداد. وقد دلت الترتيبات المتواصلة على وجود ثلاث مراحل للبناء في عام 766 أو للتوسيع (808 . 809). ويتألف المسجد من سطح مربع مع باحة أروقة مضاعفة.

إن مساجد الكوفة وواسط هي أيضاً مساجد أموية. فجدار القبلة مسند إلى قصر الخليفة أو الحاكم. كانت المساجد في المدينة القديمة في واسط تكتشف بشكل منهجي. إن الحالتين المختلفتين لمسجد الحجاج يقدمان اتجاهين مختلفين تماماً. والمسجد الثالث أفرغ خلافاً للاثنين الأولين.

حافظ المسجد الكبير في الزبير عام 1972 . 1973 على إحدى المئذنات على ارتفاعها، ويقدم حائط القبلة أشكالاً تزينية من القرميد.

إن المساجد الكبرى العباسية في سامراء هي مسجد الجمعة بمئذنته المشهورة، الملوية، التي بناها المعتصم، ومسجد أبو دلف شيده المتوكل في 860. وقد قام كروسل وهيرزفلت بدراستها وقد رممتا عام 1940 . 1944. هناك سور يحيط بهما وطولهما مهيب ولكل منهما مئذنة تقابل حائط القبلة.

والمثال الآخر والوحيد في العالم الإسلامي للمئذنة على الشكل اللولبي هو مسجد أبن طولون في القاهرة. في أبو دلف، ضم منزل خليفة إلى القبلة، وقد كانت قد اكتشفت من قبل المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث في 1978 . 1980. وهناك باب يسمح بالدخول مباشرة إلى المسجد وقد اتبع هذا الشكل تحسباً للقتلة.

بقيت مساجد سامراء على شكلها الأصلي وأعطت صورة أمينة للهندسة في تلك الفترة.

وتعتبر المساجد الأخرى من النوع المتواضع. نزع الردم عن مسجد متوسط الأهمية في خربة، تطل قاعة الصلاة على باحة مبلطة بالقرميد فيها أروقة والمحراب بجانب المنبر مزين بكتابات. وقد شهدت ثلاث مراحل من الاحتلال من القرن الثالث عشر وحتى الرابع عشر.

أطلق العديد من المساجد أثناء أعمال مشروع القادسية. وقد نشرت دراسة حول مقام علي من قبل ف.سار عام 1908. فقد وجدت مقبرة عثمانية في المنشآت القديمة. كان مسجد ذو أعمدة رمم عام 1193 يملك ملحقاً لغرفتين مثمن الشكل يوحي بالمأتم، وبقربه مسجد آخر أكثر تواضعاً من الفترة الأموية أو بداية الفترة العباسية. لقد أعيد استخدام أول بناء عباسي في قانا، مسجد مع ملاحقه، في الفترة العثمانية. وكانت المئذنة قد تغير مكانها وأعيد بناؤها في قرية حديثة. ونجد هذا التاريخ في الخليلية حيث تملك المساجد قاعة بسيطة قائمة الزوايا من الحجر وباحة.

وهناك العديد من المساجد الخاصة ذكرت في مواقع مختلفة. وكانت متداخلة في المنازل ومخططها بسيط: وجهة مكة لم تكن بالضرورة مبنية بحجرة. وفي عنبة فإن المحراب مغطى بقبة. هناك مثال آخر للمسجد الخاص في تل الأخيضر نقب من قبل ب.فنستر. ومخططه بسيط مؤلف من قاعة للصلاة قائمة الزوايا وباحة مربعة الشكل، وحجرة المحراب مزخرفة.

هناك بعض الدراسات عن المساجد أقيمت قبل الترميم. تلك كانت حالة المظفرية في أربيل وقمرية والبصرة. يؤكد علماء الآثار في المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث على الزينة بشكل عام ويكتفون بدراسة هندسية دون الوصول إلى الحفريات حيث تكون غير ممكنة في أماكن دينية فاعلة.

تم نشر الدراسات عن مساجد بغداد عام 1966 من قبل العزاوي وعام 1968 من قبل ألوسي. من بين المساجد القديمة بقيت مئذنة الحفافين التي بنيت عام 1184 من قبل زمرد خاتون، ومئذنة سوق الغزل والقمرية والجنائز التي تتبع الآن مسجد معروف الكرخي. وقد تم بناؤها في القرن الثالث عشر على وجه التقريب. يمكن أن يعود مسجد عمر سهروردي الواقع إلى جانب باب الوسطاني والمبني على مقبرة حتى عام 1234، وقد رمم في القرن الرابع عشر. إن بعض الأقسام من مسجد العقولي المرمم تعود إلى القرن الرابع عشر كالقبو والمئذنة. وكافة المساجد الأخرى المحافظ عليها في بغداد يمكن أن تكون بنيت أو عدلت في الفترة العثمانية.

الأضرحة والمقابر

تعتبر دراسات المقابر القديمة قليلة جداً. وقد وُجِدَ العديد من المقابر في المستويات العليا من ورشات الإنقاذ ولكن لم يكتب عنها. فقد وصفت هيلجا ترينكولدر المقابر التي عثرت عليها: فالجسم ممدود والرأس باتجاه مكة ويظهر

الميت مزيناً بالحلي من الطين. ويبين مكان المدفن على مستوى الأرض ببعض الأحجار حيث اثنان هما الأهم: عند رأس وعند أقدام المتوفي. وهذا المثال يدلنا على أن هندسة المقابر في الفترة الإسلامية لم تكن متطورة كما في الفترات الأخرى.

حظيت أضرحة الإسلام بدراسات لا بأس بها. جهز ت. ألين قائمة مقابر الخلفاء العباسيين في بغداد. وبرأيه لم يبق أي من تلك الأضرحة. فالرضي توفي عام 940 والمعتصم عام 1258. لا يوجد أي ضريح معروف في العالم الإسلامي قبل 862. وقد قام ستريكا وخليل بإعادة أضرحة إلى بغداد مثل قبر الحلاج (توفي عام 922) في مسجد معروف الكرخي وهو مؤلف من قاعتين وقبة مرتفعة. أما قبر محمد شكراني، فيقع على بعد 30 كم من بغداد ويسبقه إيوان، والمحراب مزين بالمكرنش. وفي النهاية، فإن قبر زمرد خاتون الذي بني في نهاية القرن الثاني عشر أو بداية القرن الثالث عشر مغطى بقبة مقرنصة.

نذكر مثال الموصل من بين الأمثلة المدنية، فهناك ضريحا زين الدين والنبي يونس الذي بني بجانب موقع نينوى الأثري. وشيد في القرن السادس عشر ضريح جرجس.

تعتبر أضرحة الإمام يحيى أبو القاسم وشيخ الشط وأمثالها ذات ميزة خاصة كونها مدموجة مع منشآت دينية أخرى، وهنا ألحقت بتلك الأضرحة مدرسة.

إن الضريح الأكثر ذكراً هو ضريح الإمام در في شمال سامراء الذي يعود إلى عام 1085 وتعلوه قبة مقرنصة وهو الأول من نوعه في العراق. وله سطح مربع أسند بمساند دائرية بين الزوايا. وأشهر قبر في سامراء هو قبة الشلبية، فسطحه مثمن الشكل، وقد رمم من قبل المنظمة الحكومية للآثار القديمة والتراث واعتبر مقبرة المستنصر الذي توفي عام 862 أو المعتمد الذي توفي عام 892. القبر الثاني في سامراء هو قبر أبو دلف بجانب مسجد شاعر في عهد المأمون. وحسب الجنابي فإن هذا المبنى مقسم إلى باحتين وحمام ومئذنة وقاعة مثمنة الشكل من الداخل ومربعة من الخارج، مما يوحي بأن المكان كان ضريحاً.

قام باولو كوستا بدراسة مقابر شط النيل ووصف مقبرة الإمام النجمي التي تشبه مقبرة الإمام در. فالقبة فوق ثماني قناطر تغطي قاعة بنوافذها ويحيط بها جدار من القرميد. أما مقابر أم الأولاد وأبو حطب فتملك مساند نصف دائرية. وقد كانت هذه المنطقة مسكونة بين القرنين الثامن والثاني عشر. ولم تكن المعلومات حول الأضرحة مفصلة بشكل كاف لكن قام المؤلف بتاريخ ما سمحت به الخزفيات.

عثر رتلنغر على بعض آثار المقابر خلال الحفريات في وادي سنجر. لقد تم تصنيف المقابر في بلد سنجر من قبل هيرزفلت: ضريح الست زينب أخت الإمام علي وضريح الشيخ سويدي سنجري الذي رمم عام 1983، وضريح قنبر علي بسطح مثمن مع قبة مقرنصة.

إن الضريح. المصلى لعلي بن وهاب منزوٍ تماماً على بعد 25 كم جنوب بلد سنجر. وفي نهاية الأمر تجد الإشارة إلى أن المصطلحات التي استخدمت للدلالة على المباني المذكورة لم تكن دائماً متطابقة. فتحت تسمية "قبر" تظهر فقط الهيئة الجنائزية وتحت تسمية "ضريح" تظهر الهيئة التذكارية وتحت تسمية "مسجد" تظهر الهيئة الروحية. والأبنية التي أسلفنا عنها على وجه العموم تقوم بكافة تلك الوظائف.

يظهر نوعان من الأبنية: الأبنية المدنية المعزولة أو المدمجة كالمسجد والمدرسة ومن النوع الآخر الأبنية المعزولة حيث تأخذ وظيفتها التذكارية بعداً آخر في الصحراء كالحماية أو كعلامات الطريق.

المدارس

لقد ألحقت المدارس في الموصل بالمقابر والأضرحة أو المساجد. وقد حددها الدواجي بسبع عشرة مدرسة حسب المصادر المكتوبة. في بغداد أيضاً ألحقت المدارس بأبنية أخرى. فتقع المستنصرية خلف مسجد الحفافين. ويعطي ماسينيون وفيولي صورة قبل الترميم. فقد تركت في القرن الحادي عشر، ثم ألحقت بالسوق. ويفسر شميد أن كونها أول مدرسة تجمع أربعة طقوس سنية فتأثر المخطط بوظيفة المبنى الجديدة. فهو يحلل التزيين الهندسي ويحدد قسماً من القصر العباسي مع المدرسة البشيرية التي بنيت عام 1225.

تقع المدارس الأخرى التي تمت دراستها في المرجانية بجانب خان مرجان، وتعتبر النظامية هي الأهم بينها وقد بنيت عام 1037 ولا أثر لها اليوم. وقد تمت المحافظة على الأبنية ذات الأشكال الدينية ودراستها. كانت الأضرحة والأبنية ذات القطعة الواحدة وذات الهيئة التذكارية تقاوم الحت والتلف أكثر. وبعد مجيء العثمانيين الذين جزؤوا الرافدين إلى مناطق مستقلة، لم تستطع المدارس لعب دورها في نشر مذهب الدولة واختلفت شيئاً فشيئاً أو تغيرت. أما المساجد فقد تابعت تطور المدينة وكانت ترمم بتواتر عدا في سامراء. فعملياً، من المستحيل دراسة بناء من هذا النوع في حالته الأصلية.

المنشآت السكنية

إن المعطيات المتوفرة لا تعود إلى الفترة الإسلامية والمصادر المكتوبة ضعيفة المستوى. بالنسبة للموصل، نعلم عبر ياقوت أنه هناك بيوت من الحوار أو الرخام بأسقف من القبب، وهذه بيوت هامة للغاية. خلال عمليات الإنقاذ تم العثور بصعوبة على جدران وبعض المواقد. أما في حمرين فقد عثر على تل أبو الجب. ويحتوي المبنى على اثنتي عشرة غرفة حول باحة مركزية. ويمكن لبعض البيوت التي عثر عليها حول مجمع ديني في القادسية ومقام الإمام علي أن تعود إلى الفترة العباسية. أما البيوت في فحيمي فمقسمة على طرفي الباحة ونجد آثاراً لتجهيزات مائية. وفي بيجان هناك الحي السكني العباسي الذي عثر عليه ميشيل كوليكوسكي.

توحي الدراسات حول السكن إلى استخدامات المخططات الموزونة، فالمواد كانت مختلفة. ففي حوض صدام في تل بير حامي تتكون الوحدة السكنية من باحة وخمس غرف. وفي قصر الملالي هناك غرفة واحدة تطل على الباحة. أما في تل عمران فالأرضية مبلطة. وفي خربة البيوت متواضعة مبنية من القرميد وأرضية من التراب.

في البصرة، عثر على جزر سكنية، وكذلك الأمر في واسط. أما في منطقة سيسفون فقد عرفت الأبنية السكنية في الفترة العباسية أعمالاً مختلفة في تل علي الحتي الكبير وفي تل السديرة وتل بارودة. تضم الأبنية العديد من الآبار والأقنية المائية وهي مبنية من القرميد مع أهمية أقل من العصر الساساني. إن حمامات البيوت في أبو سهير هي أحواض طينية. وفي حبيبية عثر على شارع ببيوته وحماماته وآباره وأقنيته.

لقد تم تقديم الحفريات في سامراء بدقة أكبر. فدراسة شارع العظم أظهر سلسلة بيوت مزينة بكثرة ووحدات سكنية مزركشة بمساند دائرية ومداخل محصنة. فهي عبارة عن معسكر جنود منظمة من قبل فصيلة الجيش لا يمكن مقارنتها بالأمثلة السابقة.

في عام 1936 أُظهر العديد من البيوت في مدق الطبول. وكانت عبارة عن خمسمائة غرفة تقريباً متجمعة حول باحات ذات وظائف مختلفة. وفي عام 1979 قام الجنابي بالعثور على بيوت بأشكال مختلفة ذات مخططات بسيطة فالغرف متوضعة على عدة أطراف من الباحة. أما الحمامات فهي من الحجر الطيني ويمكن

أن تكون الأرضية مبلطة بالقرميد أو الطين. وكانت إحدى تلك الدور تملك سرداباً. وأخيراً فإن المساجد الخاصة الصغيرة كانت متوفرة بكثرة.

وهناك عدد من المنشآت لم تجر دراستها مثل الجسور في اسكي موصل والخربة أو الحمامات. وقد أشار ستريكا وخليل إلى ذلك في بغداد والتي تعود كلها إلى الفترة العثمانية. لقد عثر على أبنية مماثلة في كيش وسيسفون في الفترة الساسانية. وبحسب خليل وستريكا فإن الحمامات في البيوت الأموية في سوريا تشكل نماذج للأبنية التي بنيت في الفترة الإسلامية. وتظهر الحمامات العامة خلال الفترة العباسية في بلاد الرافدين. أما الحمامات العامة ما قبل الإسلام فقد كانت تستخدم في سوريا وفلسطين، وهناك حمام واحد معروف في سامراء يعود إلى العهد العباسي.

إن الدراسات القليلة المسخرة لهذا الموضوع ليست كافية، مما يفسر الرجوع إلى أمثلة بعيدة الزمن كي نستقي النتائج الصحيحة.

حالة البحوث

الدراسات القديمة

تعطي كتابات الجغرافيين العرب رؤية مختلفة عما هي الحال عليه اليوم. حتى وإن لم تكن تصوراتهم إيجابية دائماً فهي الأقرب من الحدث. فقد تركوا لنا معلومات لا نجدها في مكان آخر. وكانت الدراسات المتعلقة بالطرق والطوبوغرافيا التاريخية قد اكتشفت من قبل الرحالة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومع كل ذلك، فهناك عدد من المصادر المكتوبة التي لم تكتشف بعد. فالنصوص التاريخية على سبيل المثال غنية بالمعلومات وتتطلب فقط الاستخدام الخرائطي.

لقد تمت معالجة واستخدام كافة المواضيع التي قدمها الرحالة ودرسها ماسينيون وهيرزفلت وسترانج. بالطبع، كان الباحثون الأوائل يهتمون بالجانب الأثري من الهندسة لكن أعمالهم تعكس اتجاهاً عاماً للآثار الذي أصبح اجتماعياً أكثر فأكثر. وهنا تنبغي الإشارة إلى بعض التأخر في هذا التطور في العراق، والذي يعود إلى أن الآثار الإسلامية تطورت بشكل متباطئ.

مشاركة حفريات الإنقاذ

قامت الإدارة العامة للآثار القديمة في العراق بتطوير طريقتها في الوصول إلى

الدراسات التحضيرية للأعمال الكبرى. يبدو أن الفترة الإسلامية لم تكن من صميم اهتمامات علماء الآثار. إن المشاريع بين 1977- 1988 ساعدت للحصول على حظوة هامة بالأبنية الإدارية وبالتعاون الدولي. وبفضل هذا العمل المشترك تم تحديد عدد المواقع دون دراستها وتحليلها.

الأساليب العلمية

هناك بعض الأبحاث التي لم تظهر في تقديم الأعمال. وهي عبارة عن حالتين استخدمت فيها الوسائل العلمية. جرت حفريات مغناطيسية على الموقع المسمى أبو شهير من قبل ت. دين ون. حمو. وقد ترك بيان الحساب الطوبوغرافي معلومات جيدة. أما المثال الثاني فهو التأريخ باللاسلكي على برج زبليات. وفي الحقيقة، كانت الأساليب العلمية تطبق بقلة في دراسة الأبنية الإسلامية.

برامج الأبحاث المدنية

تنحصر الدراسات المدنية في الأغلب بالأبنية الدينية أو الإدارية الهامة. وتستخدم المعطيات القديمة ونادراً ما تستعمل المواد الجديدة في التحقيقات على المدن.

إن دراسات لابيدوس وكرابار لا تعتبر مدينة بغداد كسلسلة من النصب التذكارية، لكنها تنطلق من أن بعض تلك الأبنية تولدت في المدينة. ويستنتج لابيدوس أن مدارس الحقوق تلعب دوراً هاماً في تطور المدينة الإسلامية حيث يتطلب بناؤها أحياء جديدة. وهناك شيء مشترك بين المدن الإسلامية والمدن غير الإسلامية وبفضل تلك الأبنية يختلف بعضها عن بعض.

وبحسب منظمة الآثار فإن المدن الأولى في العراق، عدا الكوفة، كانت مدناً للحماية بنيت على حدود الصحراء لحماية البلد من الغزاة والبدو العرب وهي ذات تقاليد عربية . إسلامية.

التأثير الشرقي ـ الغربي

بفضل العديد من الأمثلة المختارة من سوريا وأفغانستان ومن بينها المدرسة المستنصرية في بغداد، استنتج أندريه كودر بأن قسماً كبيراً من العمارة من الفترة الإسلامية يأتي من بيت الخراسان.

إن النظرية الإيرانية بخصوص أصول المدرسة تتعارض مع فرضية شميد في

تحليل المدرسة المستنصرية. وبحسب رأيه، فإن مدارس الحقوق أنشأت لتدريس المذاهب السنية الأربعة ولذلك، فقد تبنى مخططهم أربعة تقسيمات.

هناك موضوع آخر يظهر عند دراسة تأثير الشرق أو الغرب في الشرق الأوسط هو موضوع القصور. كانت "قصور الصحراء" السورية موضوع أبحاث عديدة. فهي تشكل قسماً كبيراً من الآثار القديمة عند الإسلام والتي تم الحفاظ عليها. وقد اعتبرت لفترة طويلة كنماذج للهندسة الإسلامية.

حاول أوليك كرابار في مقالته حول قصر الأمويين وتطور العباسيين العبور بين السلالتين من الناحية الهندسية. فقد قامت غالبية "قصور الصحراء" على أنقاض ما قبل الإسلام.

ومن هناك تأتي الاستنتاجات: فمن جهة، إن الأبنية الإسلامية تأتي مباشرة من التنظيم الاقتصادي للعالم الإسلامي. ومن جهة أخرى، كانت تقام على حدود الصحراء في العراق حتى ولو كانت الأعمال المائية أهم، وذلك لأنهم أدركوا أهمية الأرض. وفي الجزيرة، في الفترة ما قبل الإسلام، كانت القلاع تعين اتجاه الطرق بين الإمبراطورية البيزنطية وإيران وعدم استقرار المنطقة لم يسمح بالتجهيزات الزراعية.

لقد تم خلق أنظمة جديدة في هذه المنطقة. ففي نهاية العهد العباسي انحطت سوريا وانتقل مركز الإمبراطورية إلى العراق. وقام م. جبار بك وهـ. السامرائي بدراسة تطور الأبنية الزراعية في العراق خلال تلك الفترة.

وتؤكد دراسة كرابار على الاختلاف الهندسي بين القصور في سوريا المزخرفة بكثرة والتي كانت تظهر كقصور ترفيهية، ومثيلاتها في العراق التي كانت تعتبر مقراً للحكم في الكوفة وواسط وغالباً ما كانت مدنية. إن المعلومات حول هذا الموضوع قليلة لأنه لم يتم إحصاء لا المصادر الأثرية ولا المصادر المكتوبة من أجل تحليل ودراسة تفصيلية على طوبوغرافيا العراق في القرن الأول الهجري. وقد تم تنظيم تطور المنطقة حول نواة غير إسلامية.

في تقرير قدمته مريم روسين أيالون إلى المؤتمر الدولي للمستشرقين، تبين أن دار العمارة في الكوفة قد أثرت على الهندسة الأموية. ويبدو أن موقف كرابار هو الأكثر واقعية. فليس من المهم إثبات أن الغرب أو الشرق هو الذي أثر بالآخر لكن المهم هو محاولة فهم التطور العام من خلال أمثلة محددة مدروسة. فالفترة الإسلامية

تبدأ بالتأكيد في 634 ولكن يجب ألا ننسى أن الأبنية التي كانت موجودة عند وصول المسلمين صدرت من ثقافة أخرى وقد لعبت دوراً هاماً في إعداد الحضارة الجديدة.

المرحلة الانتقالية من الساسانيين إلى المسلمين

تظهر الدراسات حول هذا الموضوع نتائج متضاربة. إما أن يكون هناك شرخ بالنسبة للفترة السابقة أو أن بدايات الثقافة الإسلامية في العراق تأثرت مباشرة بحضارة ما قبل الإسلام.

لقد أعيد بناء الأبنية المحصنة لكن بمواد مختلفة. إن تبني أسلوب واحد لمخطط يدل على استمرارية معينة. هذه هي النظرية التي دافع عنها روبيرت أدامز في دراسته التي أجراها على السكان حيث تجمع فترة زمنية واحدة، نهاية الساسانيين وبداية الفترة التي تليها وهي الفترة الاقتصادية الأكثر استقراراً حيث تتألق أبنية ما قبل الإسلام. ومن أجل توضيح الاختلاف يقيم سبراً في أبو شريفة ويحاول تحديد تطور الخزف كي يتمكن من تأريخ المواقع التي ينقبها بشكل أدق. وتعتبر تلك من عمليات التنقيب النادرة المتعلقة بهذه الفترة في وسط بلاد الرافدين.

إن الأبحاث الجغرافية التاريخية لموروني تبين أن وصف الأبنية الإدارية للمرحلة الإسلامية الأولى في العراق التي أجراها المقدسي وابن خرداذبة يتسم بالمفارقات. وكان يبدو أن الأبنية الساسانية لم تؤخذ بشكل كامل. وتلتها تغييرات هامة على مستوى السلالة، وأجريت تقسيمات في مناطق إدارية كبيرة بعد دخول الإسلام على الأراضي الفارسية، وشملت التغييرات مجال الزراعة والمياه. أما الأبنية الكنسية المسيحية فلم تمسها التعديلات خلال فترة الإصلاحات في الفترة الساسانية الأخيرة ولم تتكيف مع الحقيقة الإسلامية الجديدة إلا بعد مئة وخمسين سنة من الفتوحات.

هناك دراسات قليلة حول مثابرة العبادة ما قبل الإسلام. تم إحصاء سبعة أديرة أو كنائس في عين شايي ودير ستون والحيرة ومشفينة وقصر الماء وقصير وتكريت. فالكنائس وأبنية الأديرة متجمعة في مربع قائم الزوايا ومزودة غالباً بالأبراج والمساند. ويتطرق سترانج إلى عدة أديرة أشار إليها ياقوت، مثل دير حزقل إلى جانب النمانية. وكذلك الأمر في جوار سامراء، فهناك ثمانية أديرة وجدت قبل بناء المدينة. وبحسب نورتج، هناك أنقاض يمكن أن تكون لكنيسة المأمون بقرب قرية المطيرة يبدو أنها

هدمت بين 1984- 1986، حيث من الممكن أن تكون تلك المدينة قد بناها الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح حول قصر أموي قديم بعد انتصاره. ومن الأرجح أن يكون موقع المدينة بين الكوفة والحيرة. لقد كانت مدينة العنبر التي احتلها أبو العباس منذ 702 المدينة الأهم بعد سيسفون في 323. لقد كانت عواصم بدايات الإمبراطورية الإسلامية تتوضع في أعلى أو بقرب مواقع هامة في تلك الفترة بعد بناء بغداد. هل كان ذلك من أجل التأكيد على السيطرة الإسلامية على أرباب المدينة القدماء؟ هل وببساطة، لأنه لم يملكوا الوسائل والوقت لبناء مدينة جديدة؟ في كل الأحوال، هذا يدل على أن المسلمين بقوا طويلاً في مدن ما قبل الإسلام لكي يكونوا مؤثرين.

الخاتمة

إن الرغبة في التحقق من النصوص المقدسة، بالعثور على آثار المدن المقدسة، قد دفعت علماء الآثار للاهتمام بالتاريخ القديم لبلاد الرافدين. فلم تكن الحضارات الكبرى معروفة حتى حينها إلا بنصوص أسطورية.

وبعد الاكتشافات ظهر غنى تلك الفترة وبدأ الجميع بالبحث، وكان علماء الآثار لفترة طويلة لا يهتمون بالعالم الإسلامي حيث اعتقدوا أن ما وصلهم من نصوص هو كاف.

ثم تغيرت الأمور عندما بدأ العراقيون بالاهتمام بتاريخ بلدهم، ولم يهملوا الفترة الإسلامية. وبعد إنشاء دولة عراقية مستقلة عن السلطات العثمانية عام 1921 وبعدها عن الانتداب الإنكليزي عام 1932، عززت النظرة إلى الماضي الروح الوطنية لديهم.

يتأسف المرء لقلة الدراسات حول بلد كان له أهمية عظمى في الفترة الإسلامية الأولى وخاصة في العهد العباسي. فيما عدا مواقع سامراء وبغداد والكوفة وواسط فلم تكن أية مؤلفات موجودة فعلياً.

فغالباً، الأبنية الهامة هي التي درست مثل دار العمارة في الكوفة والمسجد الكبير في واسط وقصر الأخيضر والمقابر القديمة.

وهناك مجالات أخرى لم تدرس، مثل الهندسة الخدمية. ونادراً ما كانت الأبنية المتواضعة أو المقابر البسيطة تستهدف للتنقيب. وكذلك كانت الدراسات على الخزف

الذي تعتبر الأهم في أعمال الآثار. وهنا أيضاً كانوا يهتمون بالمزركش أكثر وبالذي تمت المحافظة عليه. وهناك دراسة على الخزف المتعارف عليه حيث يسمح لنا بالتعرف على الحياة اليومية والعلاقات التجارية بين المناطق.

إن صعوبة الوصول إلى الوثائق يشل العمل. وهناك عدد من الأعمال التي لم تنشر بشكل كامل أو لم تنشر بعد. ومن المؤسف أن ندرك قلة الاهتمام بين علماء الآثار الأجانب والعراقيين على السواء. لم تكن الأساليب المتبعة هي ذاتها، والأهداف أيضاً كانت مختلفة. إن علم الآثار الوطنية في العراق يحوم حول ما هو ساطع. قسم كبير من الأعمال يهدف إلى تقييم إرث الآثار، وليست الحفريات إلا تمهيد للترميم. وفي النهاية، فإن المسؤول عن هذه الأعمال هو الرغبة في تطوير السياحة.

إن برامج الأبحاث التي عرفناها طرحت من قبل أجانب. والعمل الملفت للنظر هو عمل أ. نورتج في سامراء، فعبر الحفريات وتفسير عمليات التنقيب القديمة ومعطيات النصوص أظهر رؤية أخرى للمدينة وتطورها. وهو ينشر مقالاته الموثقة بشكل دوري.

في هذه الأعمال المختلفة، ما هي المعطيات التي يمكن الاستفادة منها؟ المادة التي تم اكتشافها خلال الحفريات يمكن أن تعطي فرصة للدراسة. لقد درست ماري مادلينا نيكرو بونزي زجاج السيلوسي. فيما يخص الخزف، نظرية أكسيل روكوي حول الاستيراد الصيني سوف تسمح بالنظر في العلاقات للعالم الإسلامي مع الشرق الأدنى.

كانت الأبنية الجنائزية قد استخدمت بكثرة من قبل كرابار. والمخططات المتوفرة لدراسة السكان كانت من سامراء، وهي تعطي رؤية لنوع من البيوت الرفيعة في الفترة العباسية.

كانت الخانات والقلاع موضوع بحث بيير لو بيكر وأكسيل روكوي، حيث اقتضى التحقيق لنصوص جغرافية مختلفة وأعمال تنقيب على الأرض. هذا النوع من الأبحاث منع بدءاً من آذار عام 1990. على أي حال، تم توقيف عمل الأجانب في العراق منذ صيف 1990.

تقدم الفترة الإسلامية في العراق تصورات جيدة لعلماء الآثار. فتصبح

المعلومات المستقاة من النصوص، والهامة في نوعيتها، غير كافية. وفي الوقت نفسه، يجب المباشرة بدراسات جديدة على أرض الواقع من أجل استكمال المعلومات وتحديث المعطيات.



وصف قصر الخليفة في سامراء

(دار الخلافة أو الجوسق الخاقاني)

■ دراسة : ألاستير نورثيدج ■
ترجمة : خالد حداد

يعتبر القصر الرئيسي الذي بناه المعتصم في سامراء عند تأسيس المدينة عام 836/221 أحد أشهر القصور الإسلامية، رغم أنه لم يعد بحالة جيدة. ومع ذلك، فهو أحد الأمثلة القليلة على القصور القديمة العظيمة (بعد ذلك على الأقل) التي يُعرف مخططها الكامل أيضاً.

يمكن التوصل إلى معرفة الموقع بشكل أفضل من كتاب كريسويل "العمارة الإسلامية المبكرة"، الذي يستند إلى عمل بعثة سامراء الألمانية عام 1911-13. ومع أن مخطط هرتسفيلد للقصر قد تم نشره كثيراً، فإن القارئ يخرج غالباً بانطباع عن وجود مجموعة كبيرة غير معروفة من الغرف، رغم إجراء إعداد ضمني للمخطط أحياناً، ربما لجعل المخطط يلائم الصفحة.

لا بد من وجود عرض شامل جديد للقصر، ونأمل أن يحدث هذا أخيراً في سياق نشر مقترح لمواقع تنقيب بعثة سامراء. تقيدني بعض الأمور وتجعلني أقتصر على نوع من التقرير الأولي حول هذا الهدف. فالموضوع كبير أولاً، ويتطلب ترابط الاكتشافات الصغيرة، والجص والزخارف الأخرى، واللوحات الجدارية. كذلك، لم يبدأ حتى الآن التعامل مع الصحف الميدانية، ولا مع جميع الرسوم المعدة للنشر. ومع ذلك اعتبرنا أنه من المفيد نشر التقدم الذي جرى، رغم أن الأفكار المعروضة ليست

نهائية بالضرورة.

في البداية يجب القول إن تسمية القصر بالجوسق الخاقاني، التي استعملها هرتسفيلد، وفيما بعد كريسويل، ثم جرى استعمالها بشكل عام في الأوساط العلمية الغربية، لا يمكن أن تكون صحيحة. وسيأتي لاحقاً شرح أسباب هذا، ولكن من الواضح أن الاسم الذي استُعمل في العراق (قصر الخليفة) قريب تماماً فعلاً من المصطلحات التي استُعملت في القرن الثالث/ التاسع. وقد يبدو الجوسق الخاقاني اسماً جذاباً وغريباً، مع أنه يوحي على نحو خاطئ بأن القصر كان تركياً بشكل ما، ولكن من المؤكد أن قصر الجوسق كان جزءاً من المجمع الكلي، وليس المجمع نفسه بالكامل. ويمكن اعتبار اسم قصر الخليفة أو دار الخلافة أكثر ملاءمة للاستعمال في اللغة الإنكليزية.

العمل السابق في القصر

لم يكن مدهشاً أن الموقع جذب اهتمام الزوار الغربيين في القرن التاسع عشر. ففي حزيران 1834 قام جراح المقر البريطاني في بغداد، جون روس، بزيارة سامراء، ونشر الوصف الدقيق التالي:

يعتبر قصر الخليفة كتلة طويلة من الأطلال بشكل حرف (T) على حافة ضفة عالية، تقسمها ثلاثة جدران متقاطعة. ويبلغ الطول الأقصى للضلع المواجه لليابسة حوالي 900 خطوة، وعرض الوجه المقابل للنهر 130 خطوة، والوجه المقابل لليابسة 580؛ ويحتوي على صفوف من المداخل، والغرف المقوسة، والقناطر تحت الأرض، الخ، مع مساحات فارغة تقسمها جدران متقاطعة. تتكشف إحدى القناطر عن عمق كبير، يسمى (الجب)، ويدل على أنه سجن: فمدخله عبارة عن ممر عمودي ضيق، ولا بد أنه كان يتم إنزال الناس داخله ثم سحبهم بواسطة حبل. وثمة تجويف مربع عميق آخر قريب منه يدعى بركة السباع، أو عرين الأسود. وهناك ممر ضيق تحت الأرض محفور من الجب إلى البركة، وقيل إنه كان يتم إلقاء المجرمين إلى الوحوش البرية من بابه. ومن الوجه المقابل للنهر، ثمة رصيف مائل، يستند إلى الأقواس، ويؤدي أسفلاً إلى الهاوية؛ وخارج القصر، عند زاويته الشمالية الغربية، تنتصب أطلال رائعة لبناء برجي اسمه الحمام.

وفي نيسان 1846 قام الملازم ج. ف. جونز من البحرية الهندية بزيارة الموقع أيضاً. لكن ذلك كان في بداية القرن العشرين فحسب، بعد نصف قرن من بدء

أعمال الآثار الغربية في المدن الملكية الآشورية، مثلاً، بحيث أصبحت سامراء هدفاً للاهتمام العلمي الأكثر جدية.

كانت الجهود الأولى فرنسية. وقد نشر الجنرال ل. دي بيليبه عام 1907 نتائج زيارة إلى سامراء وإلى مواقع أخرى في العراق. وقام المهندس المعماري الفرنسي هنري فيوليت بالتنقيب في الموقع ومسحه عام 1908، ثم عاد للتنقيب بالقصر في حزيران 1910، وحفر أربعاً وعشرين فتحة سبر صغيرة في ستة أسابيع. ثم نشر عمله فوراً، وقدم بحثاً قصيراً لكنه موضح على نحو رائع بالرسوم حول كل من الحملتين.

بدأ الاهتمام الألماني بسامراء مع زيارة قام بها هرتسفيلد عام 1903، لكنه حقق أهدافه بعد ذلك في بعثة سامراء الألمانية، التي قادت حملتين ميدانيتين عامي 1911 و 1913. حول هرتسفيلد انتباهه للتنقيب في القصر خلال الحملة الثانية. وتم كشف نحو 11000 متر مربع (يساوي الربع تقريباً) من كتلة قاعة الاستقبال، وحوالي 5000 متر مربع في مكان آخر، وبلغ المجموع 18000 متر مربع.

وفي عام 1923، بعد الحرب العالمية الأولى، أبدى هرتسفيلد أسفه لأن الآثار التي تم التنقيب عنها قد سُرقت. لم يكن هذا أمراً غير عادي؛ فقد كانت سرقة الآجر الحراري شائعة في العراق قبل انتشار البناء الإسمنتي. وكانت أسوار المدينة كلها مبنية في ثلاثينات القرن التاسع عشر بالآجر العباسي.

في عام 1914 تم نشر تقرير أولي عن التنقيب بالقصر في مقالة بعنوان الإسلام. جرى في هذه المقالة نشر الإصدار الأول للمخطط الكبير للقصر. كان المخطط طبعاً، في غالبيته نتيجة اكتشاف سطحي، لكنه يدمج مناطق التنقيب أيضاً. ويبدو أن قراءة هرتسفيلد للآثار السطحية كانت جيدة، وقد تم رسم الكثير وسيكون من الصعب إعادته اليوم. ويبدو أن الإخفاق الرئيسي كان في الزاوية الشمالية الشرقية، حيث رسم أجزاء من الوحدات الصغيرة لنموذج القصر فقط. على أي حال، بعد الإصدار الأول للمخطوط المنشور في التقرير عام 1914، جرى "تصحيح" الإصدار النهائي، الذي نشره كريسويل، مع تسوية عدد من الأبنية، بينما تظهر الصور الجوية أن الإصدار الأصلي كان أكثر دقة. وتبين أن ميدان لعبة البولو في الطرف الشرقي كان في الحقيقة على شكل متوازي أضلاع، وليس مستطيلاً.

عام 1923، في المجلد (1) من كتاب الحفريات في سامراء، نشر هرتسفيلد

الزخارف الجدارية التي اكتشفتها البعثة؛ وفي عام 1927، في المجلد (3)، اللوحات الجدارية؛ وفي عام 1948، في المجلد (6) الذي صدر بعد وفاته، تحليله للطوبوغرافيا التاريخية. على أي حال، وكما هو معروف جيداً، إن المجلدات الموضوعة عن الهندسة المعمارية في سامراء لم تُنشر، أو لنكن أكثر دقة، إن التقرير النهائي عن التنقيب نفسه هو الذي لم يُنشر. ويقتبس كريسويل، في كتابه العمارة الإسلامية المبكرة، بشكل مباشر عن هرتسفيلد، مستعملاً التقرير الأولي لعام 1914. وتوجد الرسوم غير المنشورة والصحف الميدانية ضمن أرشيف هرتسفيلد في معرض آرثر م. ساكلير في واشنطن العاصمة. كما توجد الصور السلبية للبعثة، التي التقطها سار، في المتحف الوطني ببرلين.

بعد ذلك استمر العمل الميداني ثانية على المجمع من قبل مديرية الآثار العراقية، ولو أن ذلك قد جرى بعد تأخير طويل. وقد تم كشف باب العامة وإضافته، وحفر الغرف التي في جانبه الشمالي في وقت ما من ستينات القرن العشرين أو سبعيناته. على أي حال، كانت معظم التنقيبات تتم في مكان آخر من سامراء، ومع بداية "مشروع إحياء مدينتي سامراء والمتوكلية الأثريتين" عام 1981 فحسب جرى تنفيذ عمل جديد على القصر. وفي عام 1981 جرى بعض أعمال الكشف في منطقة تنقيب هرتسفيلد داخل كتلة قاعة الاستقبال، ثم تم التخلي عنها باعتبارها غير مفيدة. على أي حال، كان النفق الذي يمر أسفل الفناء الكبير، أو المتنزه الكبير، إذا استعملنا مصطلحات هرتسفيلد، قد تم التنقيب عنه بالإضافة إلى ستة أبنية ثانوية على الجانب الشمالي من الفناء. وفي عام 1983 تحول العمل إلى كشف وترميم للسرداب الصغير (هاويات السباع). انتهى المشروع عام 1986، وتم نشره في العام نفسه. ثم بدأ العمل عام 1986–87 بالتنقيب عن السرداب الكبير؛ ومع بداية عام 1989 كان التنقيب قد اكتمل تقريباً، وانتهى الترميم قبل زيارتي في بداية عام 1990. ولسوء الحظ تأخر النشر في مجلة سومر، التي كانت مخطوطتها كاملة، بسبب حرب الكويت. وقد جرى العمل مؤخراً أيضاً على سلسلة من الغرف في الجانب الجنوبي من باب العامة، وعلى النافورة ذات الأضلاع الثمانية والمحفوظة بشكل سيئ أو على السرادق في الفناء الكبير.

وصف الموقع:

يوجد مجمع القصر ضمن كتلة الضفة الشرقية لنهر دجلة، الذي حدده حوض

نهري سابق في العصر الجيولوجي الثالث. وقد مكنت الطراوة النسبية لمادته من حفر البنية التحتية على نطاق واسع. على الجانب الغربي من القصر، يوجد هبوط شديد الانحدار يبلغ حوالي عشرة أمتار نحو سهل الغمر لنهر دجلة، وتوجد الحديقة التي على هذا الجانب في سهل الغمر. ومع أن الحركة المتكررة لحوض دجلة ضمن سهل الغمر تعجز عن حفر قدر كبير من الكتلة، فقد أزال النهر الجزء الجنوبي الغربي من الحديقة الغربية منذ القرن الثالث/ التاسع. وفي منتصف خمسينات القرن العشرين تم إنشاء سد في سامراء لتحويل مياه الفيضان من دجلة إلى منخفض الثرثار. وقد فاضت البحيرة التي خلف السد على الأرض المنخفضة لسهل الغمر، بما في ذلك جميع أجزاء المجمع غربي باب العامة. ومع نهاية ثمانينات القرن العشرين حولت رواسب الغرين التي نقلها دجلة منطقة البحيرة إلى مستنقع، وعادت منطقة الحديقة للظهور ثانية على شكل سبخة. وليس من المؤكد إن كان من الممكن استرداد أي مادة من هذه المنطقة، حيث لا يوجد أي شيء مرئي اليوم.

يستند المخطط إلى وحدتين معماريتين للقصر. الأولى، على الجانب الجنوبي، تتألف من بناء مربع بقياس180×200 متر يحتوي على باب العامة وقاعات العرش وقسم الحريم، مع فناء كبير على الجانب الشرقي. يمكن لمخطط البناء والفناء المربع هذا أن يتوازيا عند قصر بلكوارا، والقصر الذي في القادسية. ويوجد على الجانب الشمالي قصر ثان، دعاه هرتسفيلد "الخزينة" مع قاعة استقبال مربعة أصغر وشقق سكنية، وهو ضمن سور خارجي، كما يُرى في قصر الأخيضر ودار الإمارة في الكوفة.

توجد في الجانب الغربي للوحدة الجنوبية حديقة كبيرة؛ وربما توجد حديقة أخرى من نوع مختلف في الجانب الجنوبي. كما يوجد بين وحدتي القصرين حوض دائري كبير غائر، دعاه هرتسفيلد باسم السرداب الكبير، ويدعى في العراق باسم البركة الهندسية. وبعد ذلك إلى الشرق يوجد مجمع يتضمن ما دعاه هرتسفيلد باسم (Rotundabau)، وعند الطرف الشرقي، يوجد حوض غائر مربع أصغر، يدعى باسم السرداب الصغير، ويدعى في العراق باسم هاوية السباع (عرين الأسود). وعلى الجانبين الشمالي والجنوبي للحوض توجد أفنية ذات سرادقين، وصفوف من القاعات المتوازية، التي دعاها هرتسفيلد باسم "الاسطبلات". وعلى الجانب الشرقي يوجد ميدان فيه مكان للمشاهدين، وخط لبداية مضمار السباق، يمتد بعيداً نحو الشرق. في

الجانب الجنوبي للفناء الرئيسي يوجد إيوان أو سرادق يحيط به سور مجاور لما يجب أن يكون أصلاً المدخل الرئيسي للمجمع والمؤدي إلى المدينة، وبناء مربع آخر، مجاور لكتلة قاعة الاستقبال الرئيسية. ويمكن وصف القصر بأنه مجمع لوحدات معمارية.

من الواضح أن البناء بدأ عام 221/ 836، وآخر إشارة إليه على أنه بناء مسكون تعود إلى عام 884/269. وقد استمر إشغاله المعروف ثمان وأربعين سنة. ومن الواضح أن عملية تغيير كبيرة قد جرت خلال هذه الفترة. فالقصر ليس بالذي تم تصميمه، وبناؤه، ثم تركه في حالته الأصلية، رغم وجود عدة أبنية مشابهة في بداية العصر الإسلامي؛ وخلال تلك الفترة تقريباً ربما تكون وحدات قد أضيفت، أو جُددت، أو تُركت.

كان أول من أعطى وصفاً للقصر، وهو فيوليت، قد بدأ من باب العامة، ورأى أن المجمع يتألف من البناء المربع، والفناء الكبير، وأبنية ملحقة –السردابين، الميدان ومضمار السباق(2). وكان هرتسفيلد هو الذي اعتبر بناء القصر الشمالي ضمن المجمع، ودعاه باسم الخزينة. ورغم أن البنائين، في الزاوية الجنوبية الشرقية، يعتبران ضمن مخطط هرتسفيلد، فمن المحتمل ألا يكون لهما ارتباط بالقصر.

إن أبعاد المنطقة التي حددها هرتسفيلد هي 1346 متراً من الشرق إلى الغرب، من السرادق الذي على نهر دجلة إلى مكان المشاهدين المطل على مضمار السباق 2، و 1160 متراً من الشمال إلى الجنوب، من القصر الشمالي إلى البوابة الجنوبية.

الحديقة الغربية

يبدو أن الحديقة الغربية كانت تتجه أسفلاً إلى نهر دجلة، الذي لا يُعرف مجراه الدقيق خلال القرن الثالث/ التاسع. توجد مجموعة من الدرجات الكبيرة، بعرض 60 متراً، تهبط من باب العامة لا يمكن رؤيتها اليوم، ولكن يمكن أن تُرى من الصور الجوية. إلى الغرب من الدرجات كانت توجد بركة تزيينية مربعة بقياس 115×130 متراً.

ومن البركة هناك جداران طول كل منهما 220 متراً يحددان محوراً طولياً ويتجهان مباشرة غرباً نحو نهاية الحديقة. وربما كان هذا طريقاً رسمياً لمرور الخليفة

من وإلى رصيف النهر. وقد أتى ذكر هذا الموكب عند الاحتفال بتعيين ورثة المتوكل عام 849/235-50.

حين عين المتوكل ورثته من بين أولاده، ركب عبر سامراء في موكب، لم يُشاهد أروع منه سابقاً. ركب الورثة أمامه، والأتراك أمامهم، ومشى أولادهم أمام المتوكل، وبأيديهم أحزمة من الذهب... ثم نزل إلى الماء، وركب فيه، والجيش معه في قارب (جوانخيات) بالإضافة إلى بقية القوارب، وانطلق حتى وقف في القصر المدعو باسم العروس، وأعطى الإذن للناس، فدخلوا للمثول أمامه.

عند النهاية الغربية البعيدة تظهر شرفة مرتفعة مربعة أبعادها 48×40 متراً تمثل موقع سرادق حديقة.

وهناك جداران كل منهما بطول 47 متراً يحددان محوراً شمالياً جنوبياً على الجانب الغربي للبركة. ومن المحتمل أن يوضع مخطط لبضع بنايات صغيرة بين الجدارين.

ربما تكون الحديقة هي البستان الخاقاني المذكور في أحداث عام 868/254، والذي يقع كما يبدو بين الجوسق ونهر دجلة:

جاء البُغا إلى الجسر في الثلث الأول من الليل، وعندما اقترب المركب من الجسر، أرسل المؤتمنون عليه إلى الذين في المركب... ونزل البُغا في البستان الخاقاني، والتحق به عدد [من حراس الجسر]... وأسرع إلى الجوسق. وطلب الإذن من المعتز [ليدخل]، فأعطاه المعتز الإذن.

باب العامة وكتلة قاعة الاستقبال المربعة

إن كتلة قاعة الاستقبال الرئيسية للقصر الجنوبي مربعة تقريباً في شكلها، بقياس 180×200 متر. وباب العامة هو الجزء الوحيد الذي لا يزال قائماً؛ بينما ظلت في مكان آخر مجرد قطع من الجدران فوق مستوى الأرض، وفي أماكن أخرى سُرق الآجر الذي في الأساسات.

في مركز الجانب الغربي ينتصب المدخل الخارجي الرئيسي، وهو الإيوان الثلاثي المشهور المعروف باسم باب العامة. ويتألف من نفق مركزي رئيسي مقبب، وإيوانين جانبيين سطحيين، لكل منهما نصف قبة محمولة على قنطرة، ويؤدي إلى قاعات مقببة بنفق مغلق وراءها.

تُظهر الصور التي التقطها فيوليت والتي التقطها سار لمعرض البعثة الألمانية بوضوح تام كتلة بارزة من قمة البناء. ويوحي هذا بأنه كان ثمة طابق ثان. وقد جرى التنقيب أيضاً عن طريق مائل على الجانب الجنوبي للبوابة. ويُفترض أنه كان هناك مجلس (غرفة استقبال رسمية) في هذا الطابق الثاني، ذو إطلالة على نهر دجلة وسهل الغمر، على نمط غرف مشابهة مر وصفها فوق بوابات المدينة المستديرة في بغداد، والغرف التي تم العثور عليها فوق القصور الأموية الصحراوية، على أي حال، لا توجد دلالات على أن آثار البناء المربع كان لها طابقان.

بعد باب العامة، يمر الزائر عبر خمس قاعات مستطيلة ذات شكل مستعرض، ليصل، في مركز البناء، إلى فناء ذي حوض. وقد تم التنقيب عن الفناء بواسطة البعثة الألمانية، بالإضافة إلى حمام على طرفه الجنوبي. وعلى الجانب الشمالي لهذا المحور كان هناك بناء لفناء ذي طابع مستدير مركزي بقطر 31 متراً، ولا بد أنه حوض. وهناك بضع غرف مقببة تحت الأرض في هذه المنطقة. أما الجانب الجنوبي لهذا الجزء الغربي فإنه لم يتضح، رغم أنه جرى التنقيب عن سلسلة من الغرف في السنوات الأخيرة على الجانب الجنوبي لباب العامة.

على الطرف الشرقي للمحور المركزي يوجد مخطط متقاطع الشكل، يكثر عادة في مركز مثل هذا البناء المربع. والكتلة المركزية هي غرفة مقببة مع قاعات بأربعة أعمدة. وعلى الجوانب الشرقي والغربي والجنوبي توجد أفنية خلف قاعات الأعمدة؛ وعلى الجانب الشرقي توجد قاعة مستعرضة واسعة، تؤدي إلى الخارج مباشرة نحو الفناء الكبير (المتنزه الكبير). ويحتمل أن تكون هذه القاعة الأخيرة إضافة ملحقة، لأن ثخن الجدار لا يتلاءم مع بقية البناء المربع.

لم يكن قد جرى التنقيب في الفناء الموجود على الجانب الشمالي من هذه الغرفة المركزية المقببة، أما الأفنية الموجودة على الجانبين الغربي والجنوبي فقد قام هرتسفيلد بالتنقيب فيهما. ويشكل الجزء الموجود على الجانب الجنوبي ما دعاه هرتسفيلد باسم قسم الحريم. وعلى الجانب الجنوبي لهذا الفناء توجد غرفة مربعة ذات أربع دعامات، احتوت على حوض دائري منحوت من قطعة واحدة من الغرانيت المصري، أطلق عليها اسم (كأس فرعون)، ويعتقد أنها من أصل مصري قديم. وتحتوي بقية محيط الفناء على منطقة من الغرف الصغيرة، التي يقول هرتسفيلد إن بناءها أعيد مرات عديدة.

كان قسم الحريم مزخرفاً كثيراً، وبشكل خاص بلوحات جدارية تم نشرها في كتاب هرتسفيلد لوحات سامراء. ويعتمد تعريفه لقسم الحريم من حيث المبدأ على طابع التصوير الحي للأشخاص في اللوحات، الذي يمكن مقارنته مع فن القصور الخاصة في العصر الأموي. لا شك أن هذه الصور يجب أن تعود للفترة الأخيرة من إشغال القصر. فقد لاحظ هرتسفيلد تجديد البناء، وفي مكان آخر من سامراء يمكن رؤية حتى ثلاث طبقات من أجزاء اللوحات الجدارية. وربما كانت مساحة المجمع المسكون قد تناقصت، خلال تلك الفترة في عهد المعتمد. وربما يكون هذا الجزء من القصر قد أصبح مجرد سكن خاص في مرحلة متأخرة من إشغاله.

الفناء الكبير

إن العنصر الرئيسي على الجانب الشرقي للبناء المربع هو الفناء الكبير، الذي يتخذ شكل مستطيل بقياس 360×186 متراً، وأطلق عليه هرتسفيلد اسم المتنزه الكبير. يحيط بالفناء جدار من الآجر الطيني مع كوى مقوسة وتشكيلات من الجص. وكان يعلو الجدار فتحات للرمي. كان الفناء مقسماً إلى قسمين بواسطة منخفض، اعتقد هرتسفيلد في وصفه الأولي أنه قناة. ثم تبين من التنقيبات عام 1982 أنه نفق رئيسي تحت الفناء، وقد سقط سقفه داخلاً. وقد قدم تنظيف الجدار الشمالي في تلك الفترة دليلاً أيضاً على وجود ستة أبنية ثانوية صغيرة في الفناء. كانت هذه متراصفة جيداً مع الجدار الخارجي كما كان جلياً أن بناءها قد تم قبل ترك القصر. على الجانب الغربي للنفق، يشير مخطط هرتسفيلد إلى مَعْلمين مستديرين. وقد أظهر تنقيب حديث أن المعلم الشرقي هو بركة مثمنة الأضلاع لم يتم حفظها جيداً. يُظهر المخطط أيضاً سلسلة من الخطوط المستقيمة في الجزء الشرقي. وتؤكد الصور وجود هذه الخطوط، ولكن لم يُعرف ماذا تمثل، وقد اختفت الآن. وقد ظن هرتسفيلد أنها قنوات، مستنداً إلى افتراضه بأن المنخفض المستعرض كان قناة. وربما كانت جدراناً تحدد تخفيضاً في حجم الفناء كي يحتوي الأبنية الثانوية التي سبق ذكرها.

الجانب الجنوبي للمجمع

تعتبر المنطقة التي على الجانب الجنوبي للفناء الكبير إحدى أصعب المناطق في شرحها. فهناك عدد كبير من الأبنية المختلفة، ولم يحدث أي تنقيب في هذا الجزء، إلا ضمن مساحة صغيرة حيث قامت البعثة الألمانية بالتنقيب على الجانب

الشمالي للبناء. تم تحديد المنطقة بسور جداري خارجي يتجه من الشرق إلى الغرب بطول 390 متراً جنوب الفناء الكبير، كما يقسمها جدار من الشمال إلى الجنوب يمتد على الجانب الغربي للبناء.

ثمة طريق هام، بعرض 65 متراً ويضيق فيما بعد بسبب البناء إلى عرض نحو 12 متراً، يقترب من نقطة اتصال هذا الجدار المتجه من الشمال إلى الجنوب مع السور الجداري الخارجي. من الواضح أن هذا الطريق لا يتطابق مع الطريق الكبير (الشارع الأعظم) الذي وصفه اليعقوبي، والذي يجتازه القصر، ولكن مع شارع أبي أحمد، الذي ينتهي عند باب البستان (بوابة الحديقة) وقصور الخليفة. وبما أن هذا الطريق، الأكثر أهمية في سر من رأى، لم يذكره اليعقوبي كثيراً، فلا بد أنه يعود إلى الفترة المبكرة من سامراء، في المخطط الأصلي للمعتصم. لذلك من المحتمل أن تكون بوابة جنوبية رئيسية قد وُجدت في هذه النقطة، مع ممر إلى داخل الفناء الكبير. في مخطط هرتسفيلد، وعلى الجانب الغربي للجدار الشمالي الجنوبي، يمكن رؤية ممر ينعطف غرباً حول البناء. على أي حال، إن الطريق، في الصور الجوية، يقترب بالتأكيد من الجانب الشرقي للجدار، عبر المنطقة التي يشغلها البناء، ومن بوابة داخلية عند الفناء. وإذا كان هذا الوضع الأخير هو الصحيح، فلا بد أن المدخل قد تم نقله بعد ذلك إلى غرب الجدار، ويحتمل أن يكون البناء قد أنشئ في وقت لاحق.

على أي حال، إن فكرة البوابة المزدوجة تدعمها حادثة جرت عام 256/ 870: فالمهتدي "غادر عبر باب المصاف، حتى خرج عبر البوابة المعروفة باسم إيتاخ، ثم إلى سويقة مسرور، ومنها إلى درب الواثق، حتى خرج إلى باب العامة. ومخطط المهتدي هو أن يغادر القصر عن طريق البوابة الجنوبية، وينعطف غرباً، وبعد ذلك يذهب شمالاً إلى باب العامة. كان منزل إيتاخ بجانب البوابة الجنوبية، ومن الواضح أن اسم باب بستان قد استبدل هنا باسم بوابة إيتاخ.

يوجد في البناء على الجانب الغربي من الطرف الشمالي لهذا الممر المقترح بناء ذو إيوان وحيد ضمن فناء وأبنية صغيرة ذات فناء حول المحيط. وإذا كان مخطط هرتسفيلد صحيحاً، فإن البناء يتطابق مع نموذج شائع تماماً في العمارة العباسية العراقية. يوجد في الأخيضر بناء إيوان واحد منفصل بين البناء الداخلي والجدار الخارجي. وفي (المشرحات) يمكن رؤية بناء منفصل مشابه في الزاوية

الشمالية الشرقية للسور، مع مخطط مغاير قليلاً. وهناك بناء منفصل آخر مع إيوان وجامع عند مدخل سور عيسى في سامراء. تعطي هذه الأبنية انطباعاً بكونها مجلس أحد المسؤولين عن البناء نفسه، أو عن أمنه. ويذكر هذا بالوضع في مدينة بغداد المستديرة، حيث احتوى الفناء المركزي المدور على بناء للحرس ورواق ذي أعمدة للشرطة، ولكن لا يمكن تأكيد هذا. إلى الشرق من هذا الصف الشمالي الجنوبي، يبدو أن الأبنية كانت أبنية مخازن وخدمة.

على الطرف الغربي للجانب الجنوبي، جنوب كتلة قاعة الاستقبال المربعة مباشرة، تم إنشاء بناء مربع بقياس 70 متراً على نسق مختلف قليلاً، وجرى ربط هذا بالجانب الجنوبي لكتلة قاعة الاستقبال.

بين هذا البناء والصف الشمالي الجنوبي للمدخل من البوابة الجنوبية تبدو الأرض غير مستوية، ويقطعها واد ذو ثلاثة فروع. هناك ثلاث مجموعات من صفوف الغرف ذات الأفنية على أنساق مختلفة. لا تبدو هذه الأبنية واضحة في الصور الجوية، ومن الواضح أنها لم تكن ذات إنشاء الصلب. وفي الحقيقة هنالك مرجعان في النصوص يوحيان بأن المنطقة كانت سابقاً حديقة– أولاً اسم البوابة الذي جرت مناقشته سابقاً وهو باب البستان، وثانياً مرجع في عام 862/248 حول الذهاب من العمري "عبر الحدائق". هذا الوصف يدعمه مخطط القصر الجعفري، الذي له سور فارغ على الجانب الجنوبي أيضاً. من الواضح أنها قد تكون حديقة مختلفة النوعية من المخطط الرسمي للجانب الغربي.

يمكن شرح مجمعات البناء على نحو أفضل بالإشارة إلى أن القصر كان مركز اضطرابات وعمليات عسكرية خلال ستينات القرن التاسع، وبشكل خاص في الأعوام 862/248 و 866/252 و 870/256.

في اليوم الأول من رجب عام 252 [866]، جرت معركة بين المغاربة والأتراك... وتغلبوا على الأتراك عند الجوسق وطردوهم، وهم يقولون، "في كل يوم تقتلون خليفة، وتخلعون آخر، وتقتلون وزيراً".... وعندما طرد المغاربة الأتراك من الجوسق، وتغلبوا عليهم عند الخزينة (بيت المال) واستولوا على خمسين مطية منهم.

من الواضح أن القصر كان أحياناً معسكراً مسلحاً، ولا شك أن التكنات المؤقتة كانت توضع في أي مكان فارغ لإسكان الحامية العسكرية.

السرداب الكبير

على الجانب الشمالي للفناء الكبير الذي يعتبر المَعْلم الرئيسي يوجد السرداب الكبير، ويقع بين وحدتي القصرين. وهو ليس سرداباً أصلياً–أي غرفة تحت الأرض للاستعمال في الصيف– لكنه إلى حد ما حوض غائر داخل الكتلة مع الغرف المحيطة بقصد التخلص من حرارة الصيف. وقد قامت البعثة الألمانية بالتنقيب عن عدد من الأبنية السطحية. كما قامت مديرية الآثار العراقية بالتنقيب عن المنطقة الغائرة بين عامي 1987 و 1990، ودعيت باسم البركة الهندسية.

هنالك جدار استنادي خارجي بطول 180 متراً على أحد الجانبين، مع وجود الأبنية ذات الفناء في الداخل على مستوى السطح. وقد لاحظ هرتسفيلد أن بعض هذه الغرف قد احتوت على مخازن، وأوان خزفية صينية، ومواد للأرصفة، وقطع آجر مصقولة. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية قام هرتسفيلد بحفر نصف بناء مستطيل مؤلف من خمسة جدران متوازية سميكة. من الواضح أن هذه كانت مساند لبناء مرتفع سميك الجدران. ويوجد في القصر الجعفري نوع مشابه من البناء. فهناك بناء مركزي مدعوم على جدران ثقيلة، محاط بأبنية ذات أفنية. ومن الواضح أنه نوع تقليدي لبناء ما بين النهرين، لأنه يوجد بناء مشابه في الزاوية الشمالية الشرقية للقصر الجنوبي في بابل، الذي بناه نبوخذ نصر في بداية القرن السادس قبل الميلاد، ودعاه كولدوي باسم "البناء المقبب". ويُفترض أن يكون هذا البناء مخزناً للأشياء الثمينة التي يتطلب رفعها عن مستوى الأرض لأسباب أمنية.

يتخذ المركز الغائر للبناء شكلاً متقاطعاً ويبلغ 115 متراً من أحد جانبيه إلى الآخر. يوجد في المركز حوض مستدير بقطر 65 متراً، مع جرار ضيقة موضوعة في الجدران القرميدية، تم العثور في داخلها على عظام أسماك. وهناك سلالم مستقيمة ضخمة تهبط إلى الداخل من الشمال والجنوب. تغذي الحوض قناة تأتي من الشرق، وليست مرئية على السطح؛ وتوجد قناة تصريف أخرى إلى الغرب. وهنالك في نقاط التقاطع الأربع كلها ممرات مائلة للخدمة متعامدة مع السلالم الضخمة، ومع أنها لم تكن كلها قيد الاستعمال، فقد كانت واحدة على الجانب الغربي تستعمل لتفريغ النفايات، وقد وُجدت ممتلئة بالرماد والفخار والزجاج. وكانت الغرف التي حول الحوض مرتبة بشكل شعاعي، مع أنها تستند إلى مخطط الإيوانات الأربعة. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية يوجد حمام كبير، فيه أتون وقناة تحت الأرض

للتدفئة.

إن الغرف المحيطة بالحوض مزخرفة كلياً بأفاريز من الجص، وهي كلها على شكل ورقة الكرمة، من الطراز (A). ومع أن تسلسل الزخرفة بالجص في سامراء بحاجة إلى عمل جديد، فمن المؤكد أن هذا الأسلوب كان موجوداً قبل تأسيس سامراء عام 836/221، لكنه يستمر أيضاً بعد سامراء. إن الأبنية في سامراء، المزخرفة على نحو شامل بورقة الكرمة، أي باب العامة بأسلوبه المختلط (A) و (B)، والقصور الأعلى والأدنى في (الحويصلات)، التي يتطابق أحدها مع قصر الجص للمعتصم، تنسب عادة إلى بداية عصر سامراء. ويوحي دليل تاريخ الجص، رغم ضعفه، بأن السرداب الكبير هو بناء مبكر، وجزء من المخطط الأصلي للقصر.

Rotundabau

إلى الشرق من السرداب الكبير يوجد مجمع آخر للأبنية ذات الأفنية. وقد قام هرتسفيلد بالتنقيب عن غرفة الاستقبال ودعاها (Rotundabau) أو القاعة المستديرة. ولم يتم نشر المخطط أبداً. ويتضمن منزلاً كبيراً على طراز سامراء- أي كتلة استقبال يتبعها فناء وإيوان آخر. وهناك بناء آخر ذو غرف تحيط بفناء على الجانب الغربي، وأربعة أسوار أقل وضوحاً على الجانبين الشرقي والشمالي.

تحتوي كتلة الاستقبال نفسها على قاعة مستعرضة بقياس 18×7 أمتار تبرز في الفناء الكبير، الذي يبدو أنه إضافة إلى البناء الأصلي. بعد ذلك توجد قاعة مستعرضة أخرى بقياس 13.8×4 أمتار، مشابهة لرواق ذي إيوان على شكل حرف (T)، وتحيط بها غرفتان فيهما كوى جدارية. كانت هذه الكوى الجدارية مغطاة بعد ذلك بأفاريز جدارية جصية من النموذج المائل، والقاعة الرئيسية دائرية، قطرها 9.4 أمتار، ومعها أربع غرف سداسية صغيرة غريبة الشكل لها قبب منخفضة على الجانبين الشرقي والغربي. ويشير المخطط إلى أن الشكل الدائري هو شكل لاحق وأن القاعة كانت أصلاً مربعة الشكل، ولها مداخل إلى غرف جانبية مزخرفة بدعائم متشابكة.

يعطي البناء وملحقاته المرتبطة به انطباعاً بأنه مجلس لموظف ذي علاقة وثيقة بأعمال القصر، وبحاجة إلى مكان للعمل وأبنية للخدمة.

الطرف الشرقي والسرداب الصغير

يتميز الطرف الشرقي للفناء الكبير بمجموعة من المنشآت: حوض مربع غائر أصغر، (السرداب الصغير، أو هاوية السباع)، وستة أروقة طويلة، وسرادقان كبيران، وميدان للعبة البولو، ومكان للمشاهدين، ومضمار للسباق.

كان فيوليت أول من بحث في موضوع السرداب الصغير وبعده هرتسفيلد، الذي نظف مدخل السطح وأحد السلالم وأعد مخططاً، وبدأت المديرية العامة للآثار العراقية العمل على الموقع عام 1983 وقامت بتنظيف الموقع وإعادة بنائه، وانتهت عام 1986.

كان موقع المدخل في مركز الجدار الشرقي للفناء الكبير. وقد وصف هرتسفيلد هذا المدخل بأنه غرفة مربعة حيث وجد إفريزاً من الجص الملون يمثل جمالاً بسنامين. وقد أعيد بناؤها على شكل غرفة مقببة ذات كوى جدارية، وتمثل إلى حد كبير مدخلاً نموذجياً لأحد المنازل الكبيرة في سامراء. يبلغ قياس البناء عند مستوى السطح 60×54 متراً، وصوره هرتسفيلد على شكل سلسلة من الغرف حول الحوض. وقد أعيد بناؤه على شكل رواق، مع أقواس عمودية على جوانب الحوض.

يؤدي الحوض نفسه وظيفة مشابهة للسرداب الكبير، لكنه أصغر وبشكل مربع (21 متراً من كل جانب)، ويغور حوالي 8 أمتار داخل الكتلة. ويوجد إيوان ثلاثي على كل من جانبي الحوض، وكلها مزخرفة بجص من النموذج المائل، تدخل قناة من الإيوان الشمالي المركزي، ويتم تصريف الماء بواسطة قناة أخرى باتجاه الجنوب. ويهبط أحد السلالم من الجانب الجنوبي للمدخل الرئيسي، ويهبط سلم آخر إلى الزاوية الشمالية الشرقية للحوض.

الإسطبلات والسرادق

توجد على كل جانب من السرداب الصغير ثلاث شرفات طويلة؛ قياس أربع منها 106×11 متراً، والاثنتين الباقيتين 96×11 متراً. وهناك خمسة مداخل إلى الأفنية المجاورة. وقد عرف هرتسفيلد هذه الشرفات بأنها إسطبلات لميدان لعبة البولو.

ومع أنه قد يبدو مدهشاً أن يتم بناء الإسطبلات في منطقة مجاورة لمكان جميل مخصص لراحة الخليفة، مع ما تسببه من إزعاج بروائحها، فإنه ربما كان على صواب. يشبه شكل الشرفات مخططاً للبناء موجوداً أيضاً في مجموعة أبنية القصر

الجعفري تحيط الشرفات في القصر الجعفري بفناء مركزي، وتوجد مجموعة الأبنية على مسافة بعيدة عن الأجزاء المسكونة من القصر –الذي دُعي بالجعفري لاحقاً، وربما كان تحديد هذا الموضع نتيجة خبرة سيئة بالمجمع موضوع البحث هنا. إن هذا الترتيب للشرفات حول الفناء المركزي هو في الحقيقة مشابه للترتيب العادي لشرفات الإسطبل في الخانات الإيرانية، والتي توجد في العراق أيضاً.

يصف اليعقوبي، على أي حال، إسطبلات الخليفة العامة والخاصة على أنها توجد في مركز المدينة عند شارع السريجة (الشارع الأعظم). ويمكن تحديد الموقع بشكل تقريبي، ولا توجد أي إشارة لهذا النوع من البناء. ومع ذلك فمن الواضح أن الإسطبلات الموجودة في مركز المدينة، على بعد خمسة كيلومترات من القصر، كانت تخص أموراً طويلة الأمد تتعلق بتربية مطايا القصر والجيش وليس الإيواء اليومي للحيوانات الموجودة في القصر، وبخاصة المهور المستعملة للعبة البولو وخيول السباق.

إلى الشمال والجنوب من هذه الأفنية ذات الإسطبلات، يوجد فناءان مع سرادق. وقد بني السرادق الشمالي من الآجر الطيني ولا يزال صامداً جزئياً رغم تبدل قبة الإيوان الجانبي. وقد قام هرتسفيلد بالتنقيب عن البناء، لكنه لم ينشره.

يتألف البناء من إيوان مركزي بشكل حرف (T)، ويبلغ قياس الرواق الأمامي المعمد فيه 16×5 أمتار، والإيوان نفسه 5.5×8.5 أمتار. كما يوجد إيوانان جانبيان قليلا العمق، بقياس 4.2×3.2 أمتار. كانت تغطيهما أنصاف قبب مركبة على أقواس داعمة صغيرة. من الواضح أن هذين الإيوانين الجانبيين يشبهان الإيوانين الموجودين في باب العامة، ولكن ليس لهما باب يؤدي إلى القاعة التي خلفهما. يتخذ الإيوان الخارجي شكل مستطيل، بقياس 38.5 × 22.5 متراً، وله دعامات مستديرة، ويبدو أن السرادق الجنوبي مشابه لهذا. ويمكن ملاحظة أن السرادقين الكبيرين محددان لتفقد مهور الخليفة الخاصة بلعبة البولو وخيول السباق.

ميدان لعبة البولو ومكان المشاهدين

يوجد ممر من السرداب الصغير يؤدي إلى داخل فناء مربع ثم إلى ميدان طويل مستطيل. وقد قام هرتسفيلد بالتنقيب عن مدخل الميدان. يبلغ قياس الميدان الطويل المستطيل ذي الدعامات نصف المستديرة 525 × 66 متراً. وبحسب الدليل المتعلق بالسرقة، كانت الجدران مصنوعة من الآجر الحراري.

على الجانب البعيد للميدان يوجد مكان للمشاهدين، الذي يطل في آن واحد على الميدان وبداية مضمار السباق2. يبلغ قياس هذا البناء 28× 45 متراً وهو مبني من الآجر الحراري، وله دعامتان على الزاويتين الشرقيتين. إن المخطط مخصص لحجرة تتجه من الشرق إلى الغرب، وتمثل ممراً لبوابة. وعلى كل جانب توجد خمس غرف مرتبة من الشمال إلى الجنوب. من الواضح أن هذا يشكل بناء سفلياً لطابق أعلى، ربما كان منصة المشاهدين.

حدد هرتسفيلد أن الميدان أنشئ للعبة البولو. ومن الواضح أن هذا الحكم صحيح، لأن ترتيب ميدان طويل مستطيل وسرادق مع رصيف للمشاهدين على الطابق الأعلى يتطابق كثيراً مع ميدان الشاه الصفوي في أصفهان (524×159 متراً)، الذي بُني عام 1590–1604، مع سرادقه، (القبو). ويؤكد ابن قتيبة أن ملاعب البولو في العصر العباسي كانت تشبه كثيراً ميادين سامراء بالإشارة إلى أن "عرض الميدان قد حدد بمقدار 60 ذراعاً [31 متراً] حتى لا يتعرض [المشاهدون] الذين يجلسون على جداره للتدخل معهم أو الاعتداء عليهم". وهناك اثنا عشر مثالاً لميادين مشابهة في سامراء، وكلها أصغر وتوجد كلها في القصور أو مجاورة لها.

مضمار السباق 2

إن مضمار السباق هو مضمار خارجي وخلفي للسباق، ويمتد شرقاً على شكل زجاجة من مكان المشاهدين. تبتعد جوانب المضمار عن السرادق، وبعد ذلك يوجد على الجانب الجنوبي انحناء على شكل حرف (S) بعد 1510 أمتار. وبعد الانحناء تصبح الجوانب أكثر توازياً تقريباً مع بعضها بعضاً، وهناك استقامة بطول 2200 متر قبل المنحنى. يبلغ عرض المسار 80 متراً؛ كما يبدو أن الطول كان 10420 متراً.

يبدو أن هذه الوحدات التي جرى بحثها في الطرف الشرقي تمثل كياناً واحداً متماسكاً. فالسرداب الصغير وشرفات الإسطبل والسرادقان كلها متماثلة تقريباً. هناك تغيير في نسق ميدان لعبة البولو، أما الجداران الشمالي والجنوبي للميدان فإنهما يحتفظان بالنسق الأصلي، ويشكلان متوازي أضلاع، كما تأخذ الإسطبلات والسرادق في الحسبان وجود الميدان. لذلك يعتبر الميدان معاصراً لهذه المجموعة الأولى، رغم تغيير النسق. ويتناسق الميدان مع مضمار السباق؛ والسبب الوحيد الذي كان محتملاً لملاحظة أن مضمار السباق يجب أن يختلف نسقه عن محور القصر في

الأرض المسطحة هو أنه، لو تبع ذلك المحور الأصلي، سيتقاطع مع المصلى الذي في السهل، والذي يستعمل للصلاة في عيد الفطر وعيد الأضحى وهو المصلى الأقرب إلى القصر، وربما كان شائعاً على نحو كاف فرض تغيير على نسق مضمار السباق. ليس من المؤكد أن مضمار السباق 2 هو جزء من برنامج بناء الميدان نفسه، ولكن يبدو ذلك محتملاً. وهناك بعض التقارب في تاريخ مضمار السباق 2، وهو بعد مضمار السباق 1، الذي يتقاطع معه.

سيكون ثمة مفهوم ضمني بأن مجموعة الطرف الشرقي هذه هي إضافة ثانوية للقصر. وهناك بعض النقاط البسيطة التي تؤيد هذه الفكرة: إن مجموعة الطرف الشرقي ليست على نسق مع الفناء الكبير. والسرداب الصغير مزخرف بالنموذج الجصي المائل، ومن الواضح أن المجموعة هي مجمع للرياضة والتسلية في أوقات الفراغ، والسباق، ولعبة البولو، وتمضية أيام الصيف بارتياح.

الثكنات

في الزاوية الشمالية الغربية لمجمع القصر، أضاف هرتسفيلد مجموعة من ثلاث كتل لأبنية ذات أفنية مسورة ضمن بناء مجمع. تتألف الكتلة من 62 وحدة حول ثلاثة جوانب من الفناء، وتتألف الكتلة (2) من 34 وحدة مشابهة.

وتحتوي الكتلة (3) على 8 وحدات مع غرف على جوانب متقابلة من الفناء، ليصل مجموعها إلى 104 وحدات. كذلك توجد ثلاثة جوامع صغيرة.

عرف هرتسفيلد هذه المنطقة بأنها ثكنات حرس القصر. ويبدو هذا محتملاً؛ فهناك العديد من النماذج المختلفة للسكن العسكري في سامراء، والعامل الوحيد الذي يوحد بينها هو أن السكن يكون دائماً على شكل منازل الأفنية، بدلاً من ثكنات الغرف المنفردة.

الحمام

إلى الجنوب من منطقة الثكنات وشمال غرب كتلة قاعة الاستقبال المربعة، وعلى حافة المنحدر المتجه إلى سهل الغمر، يوجد بناء مربع صغير ذو جدران سميكة وثلاث دعامات مستديرة. وقد تطابق البناء الذي ذكره فيوليت مع الذي وصفه جون روس بالحمام. وكان فيوليت قد حفر فتحتي سبر في المنطقة، وتم استرداد زخارف جصية، مشابهة للموجودة في باب العامة. ويبدو أن البناء هو علّية مرتفعة.

وهناك أبنية مشابهة معروفة على الجوانب الشرقية والغربية لقصر العاشق.

القصر الشمالي

إن البناء الرئيسي على الجانب الشمالي للمجمع هو قصر داخل سور استنادي خارجي. وهذه الآثار لم يحدث فيها أي تنقيب أبداً، ولم يدخلها فيوليت في المجمع. لكن هرتسفيلد أدخلها، لأنه اعتقد مصيباً أنه لا توجد نهاية شمالية منطقية لمجمع القصر بدونها. ومن المؤسف أن العديد من التفصيلات الحاسمة قد أخفتها خنادق الخطوط الأمامية التي حفرتها الحملة العسكرية البريطانية بين النهرين عام 1917.

يبلغ عرض السور الخارجي المستطيل، المتجه من الشرق إلى الغرب، 330 متراً ويمكن متابعته لمسافة 462 متراً نحو الشرق. والجدار مجهز بدعامات ضخمة نصف مستديرة قطرها حوالي 11 متراً. وتعطي الآثار انطباعاً بأن الجدار الشرقي قد جرى هدمه بعد ذلك، واستبدل به جدار جديد متسق مع الميدان.

توجد على الطرف الغربي كتلة قاعة استقبال مربعة، بقياس 120×130 متراً تقريباً، مع جدار استناد خارجي. وهو مرفوع على شرفة واسعة، ويبدو أنه كان من نوعية المخطط ذي الغرفة المقببة في المركز. على أي حال، لا يحتمل أن تتم استعادة مخطط سليم بدون تنقيب.

على الجهة الشرقية لكتلة قاعة الاستقبال، يبلغ عرض الكتلة الرئيسية للبناء 220 متراً، ويمكن تتبعها لمسافة 285 إلى الشرق. والطرف الشرقي ليس واضحاً. ولو كان البناء متماثلاً، لكان طوله حوالي 340 متراً. ولو كان أصلاً بهذا الطول، لتطابق مع مستطيل بنسبة 2 إلى 3، مثلما وُجد في جوامع سامراء، ولكن كان من الممكن أن يقطعه البناء. وعلى غرار السور الجداري الخارجي، يبدو أنه قد تعرض للقطع بسبب الهدم في الطرف الشرقي، ليفسح المجال لبناء جديد.

يبدو أنه كان يوجد في المركز الأصلي فناء بقياس 80 × 55 متراً، يقترب منه شارعان على الجانبين الشمالي والجنوبي. وعلى الجانب الشرقي يبدو فناء آخر بأبعاد مشابهة، يفصله جدار. وعلى الغرب من الفناء المركزي، توجد قاعة طويلة بطول 25 متراً وعرض 12 متراً تقريباً، تليها قاعة مستعرضة. بعد ذلك يوجد فناء مربع ومدخل إلى الشرفة العالية الواسعة. وعلى الجانبين الشمالي والجنوبي للفناء المركزي، توجد أبنية ذات أفنية تبدو وكأنها شقق سكنية، وكانت غرف الاستقبال

الرئيسية كلها مبنية بالآجر الحراري، الذي سُرق؛ ويبدو أن الشقق السكنية قد بنيت من الآجر الطيني.

في المنطقة حيث امتد السور، إلى الجنوب الشرقي من البناء الرئيسي، يحدد مخطط هرتسفيلد مجمعي أبنية أخرى؛ لكنه لم يتوسع في مخططهما، ولم تكن آثارهما واضحة جداً في الصور الجوية. على أي حال، في الزاوية الشمالية الشرقية من المجمع، يوجد مخطط واضح جداً للبناء السكني، وهو كما يبدو قصر صغير، وغير موجود على مخطط هرتسفيلد. وكان شكله متوازي الأضلاع، بقياس 169 × 90 متراً. كما توجد كتلة استقبال مربعة من الآجر الحراري –تمت سرقتها– مجاورة للجدار الشمالي، وغرفة استقبال أخرى على الجانب الجنوبي للفناء المركزي.

ويوجد خارج سور المجمع في الزاوية الشمالية الشرقية قصر صغير آخر، بقياس 106 × 170 متراً. ويحتوي هذا على كتلة استقبال مركزية مربعة من الآجر الحراري، مع أفنية على الجانبين الشمالي والجنوبي.

مناقشة دليل الآثار

يتألف القصر في شكله الأخير، إذاً، من بنائي قصرين رئيسيين، كل منهما أكبر من قصور سامراء الأخرى، باستثناء القصر الجعفري. يحتوي القصر الجنوبي على كتلة قاعة استقبال مربعة ذات فناء كبير، لكنه يضم مكاناً صغيراً جداً للسكن على شكل المنازل ذات الأفنية، وهو طابع هام جداً عادة في القصور الإسلامية المبكرة. من ناحية أخرى، يحتوي القصر الشمالي، بشكل كامل تقريباً على أمكنة للسكن.

رغم عدم التمكن حالياً من تأريخ جميع الأبنية الموصوفة هنا، فإن العناصر الأصلية للقصر كانت تتضمن كما يبدو كتلة قاعة الاستقبال المربعة والفناء الكبير –وربما الحديقة الغربية. ويمكن أن يلحق بها السرداب الكبير والحمام اللذان يبدوان أصليين استناداً إلى زخرفتهما. ولا بد أن يكون القصر الشمالي أصلياً أيضاً، وذلك إلى حد ما بسبب مخططه الذي يذكر بالقصور السابقة، كذلك لأن السرداب الكبير، الذي يعتبر مبكراً كما يبدو، يحتوي على سلالم ضخمة تؤدي إلى القصور الشمالية والجنوبية معاً.

أما الإضافات الرئيسية اللاحقة فيبدو أنها، أولاً، الطرف الشرقي للقصر الجنوبي، بما فيه السرداب الصغير والسرادق الشمالي والجنوبي والميدان، وربما

مضمار السباق 2. ثانياً، هناك التوسع الشرقي للقصر الشمالي. والبناء الوحيد المميز في هذا التوسع هو قصر يخلد الطابع السكني للمجمع. ومن الغريب أن جزءاً من القصر الأصلي يبدو أنه قد تهدم، لكن الدليل ليس واضحاً بشكل كاف للتأكد مما حدث. هنالك أيضاً العديد من الأبنية الأخرى التي يظل تأريخها النسبي ضمن المجمع غير مؤكد.

طوبوغرافيا القصر في النصوص

إن الاسم التقليدي الأكثر حداثة للقصر كان قصر الخليفة، أو بيت الخليفة، الذي لا يزال مستعملاً اليوم في العراق. على أي حال، في فترة التقرير الأولي لهرتسفيلد عام 1914، كان يدعو الموقع باسم الجوسق الخاقاني، مستنداً ربما على عمل شفارتس. وفي عام 1983 أشار العاني إلى أ ن ثمة قصرين مختلفين ورد ذكرهما في النصوص، الجوسق ودار العامة، وأن هرتسفيلد لم يكن على صواب في استعمال اسم الجوسق لمجمع القصر. إن النص الحاسم مأخوذ عن تاريخ اليعقوبي:

توقف [المعتصم] عند الموقع الذي فيه دار العامة، وكان هناك دير للمسيحيين، واشترى الأرض من جماعة الدير، ووضع مخططات [أبنية] على الموقع، وذهب إلى موقع القصر المعروف باسم الجوسق على دجلة، وبنى هناك عدداً من القصور.

تؤكد جميع النصوص أن ثمة بنائين هما موضع البحث، لكن نصوصاً أخرى تذكر أحداثاً تتعلق بالإثنين معاً، وكأنه لا توجد مسافة كبيرة بينهما.

دار العامة

على قمة مجموعة من المصطلحات هناك تعبيرات تطلق على القصر اسم دار الخليفة أو دار الخلافة. ويستعمل اليعقوبي اسم دار الخليفة، ويستعمل الطبري اسم دار الخلافة، ودار السلطان، ودار أمير المؤمنين. ويمكن لاسم دار الخلافة أيضاً أن يحمل المعنى المجرد لبيت الخليفة. وفي عام 870/256 كان المجمع يطلق عليه ببساطة اسم الدار. وهذا النوع من المصطلحات سبق زمنياً استعمال اسم دار الخلافة لمجمع قصر الخليفة في بغداد منذ عهد المعتضد (892–908) فصاعداً. ومن الواضح أن اسم قصر الخليفة التقليدي الحديث هو من سلالة هذا التعبير.

ربما كانت مجموعة الأسماء هذه تمثل تسمية شاملة لمجمع يضم عدداً من القصور، كما كانت الحالة بالنسبة لدار الخلافة في بغداد؛ ولكن ربما كان أكثر احتمالاً أنها مرادفات بسيطة لاسم دار العامة؛ ويفسر اليعقوبي في الحقيقة اسم دار الخليفة بهذه الطريقة الأخيرة.

كانت دار العامة هي القصر العام الذي يجلس فيه الخليفة لسماع شكاوي الناس أيام الاثنين والخميس. ويبدو أيضاً أن الخلفاء كانوا يديرون جزءاً كبيراً من أعمالهم هناك. وكان للخليفة فقط الحق في تحديد المواعيد فيه، وقد جرت تأدية قسم الولاء للمستعين هناك عام 862/248، كما أقام المهتدي محكمة العدل (المظالم) فيه.

لقد ذُكر بالتحديد أن دار العامة بنيت على موقع الدير الذي كان هناك سابقاً، وأن بناء الدير تحول إلى الخزينة (بيت المال). وتربط جميع النصوص بيت المال بدار العامة، وبخاصة في حادثة جرت عام 231/845-46 عندما "حفر اللصوص فتحة في بيت المال الموجود في دار العامة بقلب القصر، وأخذوا 42000 درهم". وقد يفترض المرء أن يكون الدير نتيجة لهذا الحدث قد استبدل به بناء أكثر أمناً، لأنه لا توجد أي إشارة إلى بناء دير على الأرض.

كما يرتبط باب العامة بشدة أيضاً مع دار العامة. وفي النصوص، يُعتبر باب العامة موقعاً للوافدين الرسميين إلى القصر. فمثلاً، عندما جرى إحضار المتمرد بابك إلى سامراء عام 838/223، "جاء الناس لينظروا إليه من المطيرة إلى باب العامة، وتم إحضاره داخل دار العامة إلى أمير المؤمنين"، وفي عام 241/855-56 "وقف القُمّي عند باب العامة مع بعض البوجا، وكانوا 70 غلاماً يركبون الجمال".

كانت هذه الأحداث مواكب انتصار، تذكر بالانتصارات الرومانية.

على أي حال، يتطابق باب العامة أيضاً مع العقوبات العامة. ففي عام 841/226، "صلبوا [الأفشين] على باب العامة كي يراه الناس.. وتم إحراق الجثة وأخذوا الرماد وألقوه في نهر دجلة". وفي عام 870/256 كان رأس صالح بن وصيف "قد عُلق عند باب العامة لمدى ساعة".

وفي عام 872/259-73 "ضربوا [سكرتير كنجور المسيحي]... 1000 سوط عند باب العامة، ومات". ويبدو أن السمعة السيئة للقصر في التقليد الحديث (وفق

وصف جون روس السابق ذكره) تستمد من هذه الأحداث، رغم أنها انتشرت من باب العامة إلى أجزاء أخرى من القصر.

يوجد باب العامة وفق النصوص غربي القصر –ويمكن للمرء أن يخرج من باب العامة نحو الهاروني، الذي يمتد في سهل الفيض لنهر دجلة– وعلى مقربة من "الطريق"، أي الشارع الأعظم أو شارع السريجة. ويمكن للمرء أن يرى باب العامة ودار العامة من الطريق.

لذلك فإن التطابق التقليدي لباب العامة مع الإيوان الثلاثي على الواجهة الغربية للقصر يجب أن يكون صحيحاً، كما أن كتلة قاعة استقبال المربعة للقصر الجنوبي يجب أن تكون دار العامة.

يبدو غريباً القول إن الطريق الرئيسي كان يمر عبر حديقة الخليفة الرسمية، والتي يفترض أن تكون خاصة، وأن تعريف باب العامة كان موضع شك لهذا السبب. ويبدو أن الحل يكمن في التسلسل الزمني. إن دليل علم الآثار حول الحديقة الغربية يتفق مع الفرضية، رغم أنه لا يثبتها، بأنها أبكر في تاريخها وتعود إلى فترة الإنشاء الأصلية للقصر. إن أول إشارة إلى باب العامة على أنه مكان مفتوح للناس يعود تاريخها إلى عام 838/223، كما أن وصف اليعقوبي للشارع الأعظم يعود تاريخه إلى ما بعد موت المتوكل عام 861/247. وربما لم يكن ممكناً أن يبقى خاصاً ما خطط له المهندسون المعماريون ليكون حديقة خاصة، بينما كان القصر نفسه مخصصاً ليصبح بناء عاماً. وعلى أي حال، إن المكان الأكثر منطقية كي يعبر الطريق الحديقة هو بين الجدارين الشمالي والجنوبي.

يرتبط بيت المال مع باب العامة والطريق في حادثة عام 862/248، وهكذا يحتمل أن يكون البناء على الجانب الجنوبي لكتلة قاعة الاستقبال المربعة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فقد يفضل المرء أن يطابق بيت المال مع البناء المقبب ضمن سور السرداب الكبير، الذي يبدو أكثر أمناً، ويمكن وصفه بأنه شكل خاص بما بين النهرين لبيت المال المرتفع في الجامع الأموي بدمشق.

الجوسق

يرجع الجوسق وفقاً لليعقوبي إلى البناء الأصلي لمدينة سامراء، وقد دعي باسم الجوسق الخاقاني، نسبة إلى خاقان "عرطوج أبو الفتح بن خاقان، الذي كان مسؤولاً

عن بنائه والذي خُصصت له مقاطعة مجاورة له. وقد أتى ذكر إيوان فيه. وكان يوجد أيضاً برج اسمه اللؤلؤة، تم بناؤه ليكون سجناً للأفشين؛ وربما ليتجول الحرس تحته.

من الواضح أن الجوسق قد أفرد في النصوص ليكون سكناً خاصاً يقيم فيه الخليفة. وقد دُفن المعتصم هناك عام 842/227. ثم بنى الواثق قصر الهاروني (842/227–847/232) وانتقل إليه، حيث أقام المتوكل أيضاً أغلب فترة حكمه (847/232–861/247).

لكن المتوكل وضع ابنه المنتصر في الجوسق، ووفقاً لابن الأعثم الكوفي (توفي عام 926/314) فإن المنتصر قد دفن هناك عام 862/248. وقد أقام المستعين والمعتز والمهتدي جميعهم في الجوسق، ودُفن الاثنان الأخيران هناك، بالإضافة إلى المنتصر. وقد أقام المعتمد في الجوسق، حتى انتقل إلى قصر المعشوق، ورجع إلى هناك للمرة الأخيرة عام 884/269. وفي عام 903/290 قرر المكتفي إعادة تعيين العاصمة في سامراء، ولكن يبدو أنه وجد الجوسق قد تهدم، لأنه أُجبر على التخييم هناك.

إن الدليل المحدود حول النساء في القصر يتعلق بالجوسق: ففي عام 869/255 كانت قبيحة، أم المعتز، "قد أخرجت الأموال، والجواهر، والممتلكات الثمينة في المخازن الموجودة داخل الجوسق" لتدفع إلى الأتراك. وفي عام 870/256 نشرت رسالة، أحضرتها امرأة "من المنطقة المجاورة لقصر الأحمر (المرتبط عادة مع الجوسق)".

جرت العادة أن يُسجن في الجوسق السجناء المميزون. كان الأول عام 839/225–40 هو الأفشين حيدر بن كاوس الأشرساني، الذي تم بناء سجن خاص به. وفي عام 862/248 سجن المستعين ابني المتوكل، المعتز والمؤيد، في غرفة من الجوسق. ثم جرى إطلاق سراح المعتز عام 865/251، وأصبح خليفة، وأعاد سجن المؤيد سيئ الحظ، الذي مات أخيراً في السجن، وفي عام 870/256 أطلق سراح المعتمد من السجن في الجوسق ليصبح خليفة.

عندما يقترب المرء من القصر عن طريق شارع أبي أحمد، وفقاً لليعقوبي، فإنه يقترب من باب البستان وقصور الخليفة، (وهي عبارة يبدو أنها تعني السكن الخاص للخليفة). ولا يذكر اليعقوبي الجوسق أو الجوسق الخاقاني في وصفه لطرقات

سامراء، وعلى المرء الافتراض أنه تم تصنيفه هنا بين أماكن سكن الخليفة. إن أماكن سكن الخليفة تقع بشكل ما في الطرف الشرقي للقصر. وفي عام 870/256، أيضاً، انطلق موسى بن بُغا "إلى الحير... حتى وصل إلى بوابة الحير المجاورة للجوسق وقصر ا لأحمر". ويوصف الجوسق بأنه يطل على الحير –من الشرق، رغم أنه ذُكر أيضاً باسم "الجوسق على دجلة".

من الواضح أن المرشح للتطابق مع الجوسق هو القصر الشمالي في المجمع. فهو البناء الوحيد بالمقياس الصحيح الذي يصلح لإقامة الخلفاء–فهو يحتوي على شقق سكنية، لا تتوفر في البناء المربع. ويعتبر المعسكر في الشمال مرشحاً جيداً لمقاطعة الخاقان عرطوج، التي أتى ذكرها على أنها مجاورة للجوسق.

إن القصر الموجود، ضمن التوسع الشرقي المضاف للمجمع، يمكن أن يتطابق مع القصر الكامل، الذي بناه المتوكل للمعتز ضمن الجوسق، وربما أضيف له في فترة حكمه بناء صممته أمه. ويمكن لقصر الأحمر، المرتبط على نحو كبير بالجوسق، لكنه منفصل عنه، ويوجد قرب بوابة شرقية داخل المجمع، أن يتطابق مع القصر الصغير الموجود في الزاوية الشمالية الشرقية.

المناقشة

إن الطبيعة المزدوجة للقصر، في كل من المصادر النصية ودليل الآثار، تثير الانتباه تماماً. فمن جهة، هناك قصر مربع دون تسهيلات سكنية، يواجه الشارع الأعظم والحديقة من الغرب وفناء كبيراً من الشرق. ومن جهة أخرى، هناك قصر ذو تسهيلات سكنية، يحيط بها جدار استنادي ضخم. وفي الدليل النصي هناك دار العامة، وقصر عام حيث ينصب الخلفاء ويطاح بهم ويجلسون لسماع الشكاوي والحكم. ومن ناحية أخرى، هناك سكن خاص، هو الجوسق، حيث يقيم الخلفاء، ويموتون، ويدفنون، والذي يبدو أنه ميدان نشاط النساء.

تؤكد هذه الميزات التشابهات والاختلافات في مخطط القصر الجعفري. ولا شك أن قصر المتوكلية، الذي بني عام 859/245–861/247، كان القصد منه أن يجاري قصر الخليفة في سر من رأى، وكان إلى مدى معين نسخة منه. كما أن مساحة القصر الرئيسي، وهي 176 هكتاراً، تماثل تقريباً مساحة دار الخلافة، لكن البناء مفصول عن المدينة بمسافة تبلغ بين 1100 متر و 2300 متر، والتي كان يقصد بها فقط هدوء الخليفة وأمنه. إن كتلة قاعة الاستقبال على نهر دجلة أصغر

(125× 125 متراً)، وتشرف على القسم الرئيسي من القصر كتل المنازل ذات الأفنية، التي من الواضح أنها تستعمل شققاً سكنية، وإلى الشمال والشرق، تبدو المساحة الشاسعة وتنظيم المخازن والمشاغل مثيرة للإعجاب، بالمقارنة مع الترتيبات التدريجية الواضحة لدار الخلافة. ووفقاً لتاباري، كان هناك باب العامة في القصر الجعفري، الذي لم يتحدد بشكل دقيق بعد، ولكن من الجلي أن دور القصر العام كان، أولاً، متحداً ضمن التصميم الإجمالي، وثانياً، أقل أهمية بكثير مما هو في دار الخلافة. كان المتوكل قد أمضى في الخلافة مدى اثنتي عشرة سنة عندما بدأ بناء المتوكلية عام 859/245، ومن المؤكد أنه كان قد مل من صخب السياسة.

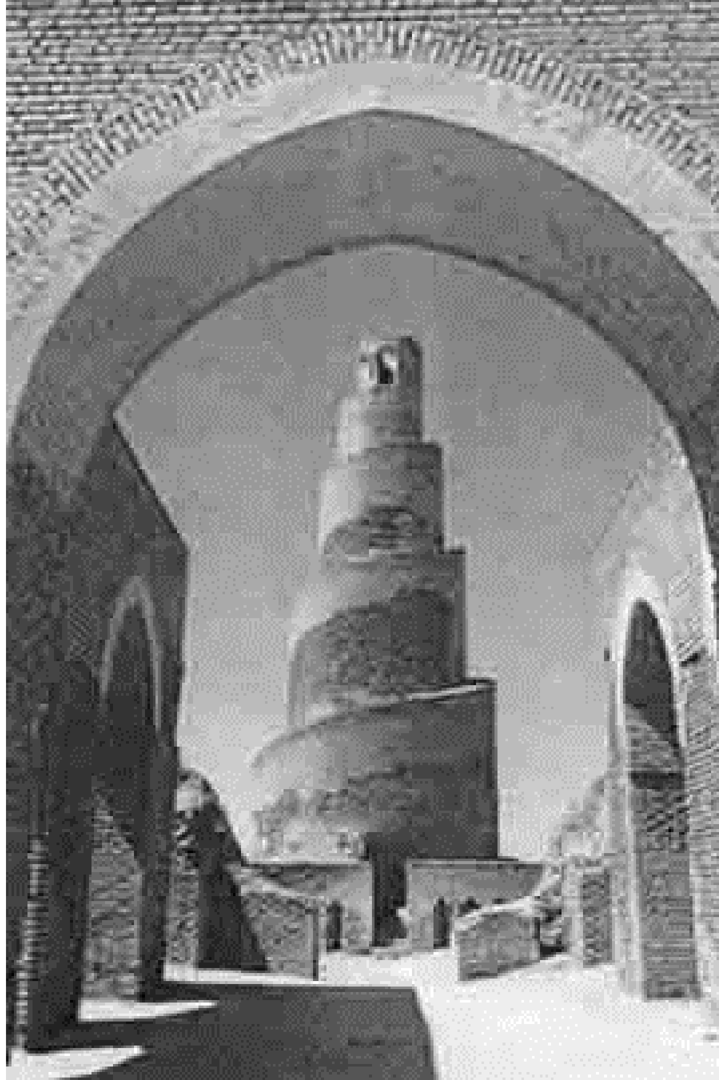
هذا الإخفاق من جانب المتوكل يؤكد رؤيا المعتصم السياسية في بناء قصر عام مميز. وكان المعتصم يضع علاقته مع شعبه في المقام الأول عندما أسس دار العامة. وهناك قصران إسلاميان قديمان آخران لا يزالان باقيين حيث كان التوجه نحو الشعب يعتبر أمراً هاماً؛ أحدهما هو قاعة الاستقبال ذات الإيوانات الأربعة في مدخل القصر الأموي في عمان، والآخر هو قصر أشناص في الكرخ، وسور أشناص، حيث يؤدي المدخل الرئيسي إلى داخل فناء يحتوي على جامع في مركزه.

من المثير للانتباه أن القصر العام هو الذي تلقى الاهتمام فيما يتعلق بالإضافات، والتحسينات، ونوعية الإنشاء، رغم أن البنائين لهما أبعاد متشابهة. إن القصر المربع مبني بكامله من الآجر الحراري؛ والقصر الشمالي مبني بشكل جزئي من الآجر الطيني. وكانت عدة مجمعات مبنية أصلاً أو مضافة بعد ذلك إلى الفناء الكبير للقصر الجنوبي، بما في ذلك مجمع الرياضة والترفيه في الطرف الشرقي. والإضافة الوحيدة التي جرت للقصر الشمالي كانت القصر الصغير، بينما يبدو أن جزءاً من البناء الأصلي قد تهدم.

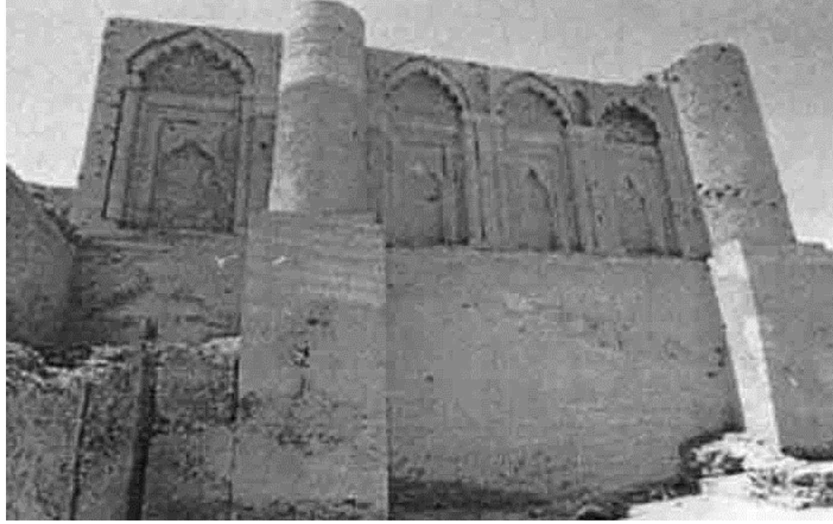
يمكن تفسير عدم التكافؤ هذا إذا اعتبر المرء أن القصر العام هو ميدان نشاط للرجال والقصر الخاص ميدان نشاط للنساء. ولا شك أن الخلفاء كانوا يمضون أيامهم في دار العامة، وليس اليومين المخصصين لسماع شكاوي الناس فحسب. وترتبط التسهيلات الرياضية بالقصر العام، وليس الخاص، ومن الشائع تمضية فترة أطول على التسهيلات لدى أولئك الذين يسيطرون على الأمور المالية.

وأخيراً لا شك أن بعض الخصائص الأكثر غرابة يمكن أن تنسب للتاريخ المعقد للقصر. وربما تناقص الإشغال، وبخاصة قرب النهاية، تحت حكم المعتمد

(870/256–892/279)، الذي كان يتمتع بسلطة ونفوذ ضئيلين، وربما كان البناء المربع آخر الأبنية التي شغلت، مما يوضح الطبيعة الخاصة للوحات الجدارية فيما يدعى بقسم الحريم.



جامع سامراء ومئذنة الملوية



قصر العاشق في سامراء

❑❑

الموساد
ويهود العراق

■ إعداد وترجمة : جودت السعد- الأردن ■

ذكرت صحيفة معاريف الصهيونية الصادرة بتاريخ 8-1-1998، أن الشرطة الإسرائيلية ألقت القبض على سمسار يبيع نسخة من التوراة المكتوبة على الجلد والتي سرقت وهُرّبت من العراق أثناء الحرب العراقية . الأمريكية عام 1991 وأدخلت إلى إسرائيل عن طريق الأردن، فإذا صحت الرواية التي أوردتها الصحيفة فإن ما هُرّب هو جزء أو بعض من جزء، فالمخطوط التوراتي هذا مكتوب على جلد غزال، ولأن الكتابة بهذه الطريقة تأخذ حيزاً كبيراً فقد كتب كل سفر من أسفار التوراة ال (39) منفصلاً عن الأسفار الأخرى، ووضع كل سفر في صندوق مخروطي الشكل يصل ارتفاعه إلى نصف متر، يخترقه من الوسط وبشكل طولي قضيب معدني يلف عليه المخطوط ويسهل إخراجه عند القراءة، كما يبلغ قطر المخروط من الوسط حوالي 50 سم تقريباً.

وضعت جميع هذه النسخ والتي قُدّر عمرها بحوالي 200 سنة في مستودع خاص في دائرة الآثار العراقية (المتحف العراقي). وتوجد نسخ متفرقة من هذه الأسفار في مركز المخطوطات العراقية، كما علمتُ أن بعض الأشخاص يمتلكون نسخاً عنها حيث اقتنوها بالشراء المباشر من اليهود العراقيين قبل أن يتركوا العراق. ومع أن هذه المخطوطات ليست نادرة "جداً" إلا أنها تعتبر جزءاً من التراث العراقي المسروق، وأشارت الصحيفة الصهيونية أن هذا المهرب أدخل معه إلى إسرائيل 73 مسكوكة ذهبية تعود إلى العهد البيزنطي جاء بها من العراق أيضاً. أما سبب اعتقال هذا الشخص فليس لأنه سارق بل لأنه طالب بمبلغ 300 ألف دولار ثمنها.

ما يميز تلك النسخ عن مثيلاتها المطبوعة أن سفر الخروج فيها يذكر الأهزوجة التي كانت ترددها (مريام) وباقي النسوة بعد أن اجتازوا البحر إلى البر، هرباً من فرعون حسب الرواية التوراتية والتي تقول فيها:

رددوا

واركبوا موج البحر

إرادة يهوه ترتقي فوق

حصانٍ

قوي

فاهزج لي

الخلاص

فأبونا يشد أزرنا

بحزن يعيش إيل

إلهي

يهوه أوقد ناره

حجر

قَلَبَ أمواج البحر

قوية يمينك يهوه

يمينك

عالية النواح

قدسيتك

قضت الاستيطان في فلسطين

سَمِعَتْ كل الشعوب

والجنود

اذكوا روح السيطرة

عظيم

بقوتك المقدسة

غارَ الماءُ بقوة يهوه

الماء

أغنية الموت

معجزة

تمحو الدنس

من عينك قطرة

استقرت

ومع إيل تحلو الإقامة

الرعب

وأنت يهوه معاً

ينمو كنبات على الدِمَن

حتى

ونحن نعبر الآن

علماً بأن الأهازيج والأناشيد الدينية اللاحقة هي النتاجات الوحيدة فيما يسمى "الأدب" الصهيوني أو اليهودي، وغالبيتها تقليد مسطح للموروث العربي . الأدبي، وهذا ما أشار إليه الباحث الصهيوني (إسحاق أبيشور) الأستاذ في الجامعة العبرية في كتابه الموسوم "أشعار زيارة القبور المقدسة" الذي صدر عام 1982 في القدس. وقد أورد الكاتب مجموعة من الأهازيج التي كان اليهود يقرأونها أثناء حجهم إلى الأماكن التي يقدسونها وتتميز هذه الأهازيج بصفات:

أولاً: معظم النصوص الواردة في الكتاب باللهجة العامية العراقية، وكتبت باللغة العبرية، وهذا دليل على عملية السطو التراثي والأدبي.

ثانياً: جميع هذه الأهازيج عربية بالأصل حولت شخوصها لتخدم التوجه اليهودي لكنها ظلت عربية المنطوق عبرية الكتابة.

ثالثاً: تعود بدايات وأعمار هذه الأعمال إلى مئات السنين كما يقول الحاخام (شريراً جؤون)

رابعاً: مغفلة أسماء المؤلفين.

أما مواضيع القصائد . الواردة في الكتاب . فتنحصر بعدة أغراض:

1. قصيدة تُنشد عند زيارة اليهود العراقيين الأماكن المقدسة في فلسطين.
2. قصيدة خاصة بزيارة قبر النبي حزقيال (ذو الكفل) والقريب من مدينة الكوفة في العراق.
3. قصيدة قصصية تبجل حزقيال مطلعها: "يا نبي يا نبي".
4. قصيدة تحكي مآثر النبي عزرا مطلعها "حلو حلو هالسوفر".
5. قصيدة مطلعها "آه منك آه منك" وهو شعر تَشكٍّ ودعاء ترددها المرأة ضد زوجها.
6. قصيدة مطلعها "يا زوار يا زوار" وهو شعر دعاء لإبعاد اللصوص وسارقي اللحم المقدم كأضاحٍ على قبر حزقيال.
7. قصيدة مطلعها "زنجولا خوش زنجولا، زيارتكم مقبولة" وهي مرتبطة ببداية كل زيارة.
8. قصيدة مطلعها "والمايزوره اليعازر عمره خسارة" وهي لحث اليهود وغير اليهود على زيارة قبر عزرا في البصرة.

ويشير الكاتب (إسحاق أبيشور) إلى مميزات هذه الأشعار والخيوط التي تربطها فيقول:

أ: أشعار تصلح لكل زمان ومكان . كما يعتقد اليهود.

ب: أشعار خفيفة وسهلة الحفظ وأسلوبها قصصي سريع الفهم.

جـ: اللغة مشوشة وهي أقرب إلى العامية العراقية.

تأخذ تلك الأهازيج منحيين: الأول دعوات ضد "الجوييم" أي الأغيار . غير اليهود . وهم هنا العرب. والثاني مديح للذات اليهودية وتضخيم لها رغم أنهم كانوا يعيشون، تلك الفترة، على هامش المجتمع العربي. ويبدو الحقد واضحاً في بعض الأهازيج ومبطناً في أخرى لكنه واضح الدلالة أيضاً.

ومن الأهازيج التي تتلى أثناء السير إلى فلسطين:

يوم الأحد جينا (جئنا) نصار[1]
طلبنا من رب السما (السماء) السعد والنصر
نزور بيت المقدس بالشباب المؤزر
يفرح صديق إلنا (أي لنا) ويموت أعدانا

–

خيمنا يوم الثنين (الاثنين) وجينا لسامرين[2]
طلبنا من رب السما عالردي (على الرديء) يعين
ونزور بيت المقدس، سبعين سنهدرين
يفرح صديق إلنا ويموت أعدانا

–

خيّمنا يوم الثلاثا وجينا للمغارة[3]
لا كلام للردي كلامه عاره
ونزور سِتْنا (جدتنا) حوا وساره
رفقا وراحيل خلفتانا

–

جيناك يوم الأربعاء وجينا إحما[4]
يا ريت (يا ليت) جمع العدو يبرد وما يحمى
قصدي أزور الخليل في إحمى (أي حِمى)
شُفنا (رأينا) الجبل وهاي (هذه) طبريا
خيّمنا يوم الخميس وجينا لشمس[5]

---

(1) *اسم مكان.*
(2) *اسم مكان.*
(3) *مغارة مقدسة عند اليهود قرب مدينة الخليل.*
(4) *قرية في الجولان.*
(5) *اسم مكان.*

يا ريت (يا ليت) جمع العدو يصبح وما يمسي

يبعث مسيحنا ويقعد على الكرسي

يجمع جمع إسرائيل شرقي وغربي

–

خيمنا يوم الجمعة وجينا لدوما[6]

يا ريت بيوت العدو تكون مهدومة

يبعث مسيحنا القاعد في روما

يجمع جمع إسرائيل شرقي وغربي.

أدعية وأهازيج كثيرة يرددها اليهود في مواسم الزيارات خارج العراق لكن يمكن إنشادها عند الأضرحة في العراق ومن أكثرها شيوعاً:

روحي فدا النبي موسى نبينا

على كل الأمم إحنا (نحن) علينا

بحق مُخضّر الزيتون والتينا (التين)

يحوّط (يحيط) أبونا الخَضِر عالميا (على الماء)

–

روحي فدا النبي موسى ويوم المات (الذي مات فيه)

لعلي أصير أنا وهو قدام الآيات

بحق ما جانا (جاءنا به) الزبور والتوراة

تجعل مقام النبي في جنان الحوريا

–

روحي فدا النبي موسى وأولاد حنا

طعمى (أطعَمَ) القوم السلوى يا مِنّا

بحق موسى واللي (الذي) بنى تحتنا جنا (جنة)

---

(6) اسم مكان.

القصورا (قصورها) عالميّا (على الماء)

–

أما أثناء زيارة قبر حزقيال في قرية "الكفل" قرب الكوفة فثمة أشعار خاصة بالمناسبة:

جيناك يوم الأحد وجينا للدوره[7]
يا ريت (ليت) بيوت العدو تكون مهجورة
ونروح سيدنا حيطا (حائطه) نزوره
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

–

جيناك يوم الثنين (الاثنين) وجينا لخان أزاد[8]
يا ريت جمع العدو ينقص ولا يزداد
حيطه (حائطه) وأقواسه تنباع (تُباع) بالمزاد
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

–

جيناك يوم الثلاثا وجينا إسكندرية[9]
يا ريت (ليت) جمع العدو توقع عليه بليّه
وجمع إسرائيل بالفرح يملا (يملأ) عينيّه
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

–

جيناك يوم الأربعا وجينا للمحاويل[10]
يا ريت (ليت) جمع العدو يصيحون يا ويل
وجماعة إسرائيل يمشون بشراويل

---

(7) منطقة قرب بغداد.
(8) منطقة قرب النجف.
(9) الإسكندرية مدينة بين بغداد وبابل يقال إن الإسكندر المقدوني هو الذي بناها.
(10) منطقة قرب الحله.

يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

جيناك يوم الخميس وجينا للحلّه
يا ريت (ليت) جمع العدو يوقع بالعلّه
ونقول قدامك يا رب العَليّه
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا
–
جيناك يوم الجمعة وجينا لسيدنا
يا ريت (ليت) جمع العدو تنفغص عينه
وتنكسر أيدين (يدا) حيطه ورجلينه
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا
–
جيناك يوم السبت وجينا للنبي
يا ريت (ليت) جمع العدو ينهزم ويختبي
ونقول قدامك أنت يا ربِ
يفرح صديق إلنا (لنا) ويموت أعدانا

ثلاثة "أدباء" يهود ولدوا وعاشوا وترعرعوا على شواطئ دجلة، نهلوا العلم العربي منذ نعومة أظافرهم، لغتهم عربية وخطهم عربي وأساتذتهم عرب.. ولما جاءت لحظة الاختيار رجحت كفة "التربية" التوراتية والتعبئة النفسية وانحازوا إلى المعسكر الصهيوني بكل مفاهيمه وسلوكياته.. سامي ميخائيل، شمعون بلاّص، شاشون سوميخ. غادروا بغداد وقلوبهم مليئة حقداً على بغداد وحضارتها وقيمها.. ثلاثة "أدباء" أداتهم الإبداعية كانت العربية التي لا يعرفون غيرها، ولم تنشر نتاجاتهم . وقتها . إلا الصحف العربية، فغابوا أكثر من ربع قرن عن الكتابة حتى أعادت الصهيونية صياغة فكرهم و لغتهم.. "فاحرقوا" الحرف العربي واستبدلوه عبرياً..

كتب سامي ميخائيل رواية "الملجأ" بالعبرية كما كتب شمعون بلاّص رواية

"المعبرة" مناخاتها في الغالب عربية، أجواؤها عادة عربية وشخوصها عرب ويهود أسماء عربية وأماكن عربية وعادات وطقوس.. لكن اليهود فيها متميزون.. صاحب البار يهوديّ والنادل عربي، صاحب الشاحنة يهودي والسائق عربي المثقف والقارئ يهوديان وموزع الصحف الأمي عربي.

عمل "الأدباء" الثلاثة بداية في صحيفة "زوهادريخ" و"كول هاعام" وصحيفة "الاتحاد" وهي صحف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، إلا أن (سوميخ) قفز نحو اللبرالية الصحفية وعمل في جريدة هآرتس.

كتب شاشون سوميخ في صحيفة هآرتس 10-9-1999 بعضاً من ذكريات العراقية.. "كانت الطائفة اليهودية في معظمها تعيش في منطقة (الحيدر خانه) في بغداد وفيها مدرستنا المتوسطة.. وكان مدرس الأدب العربي فيها الأديب المعروف (محمد شراره) اللبناني الأصل الذي جاء من جنوب لبنان (مرج عيون) ليَدْرس الفقه الإسلامي في النجف، وفي العراق انتمى إلى الحزب الشيوعي وتم طرده إلى لبنان بداية الخمسينات.

خطواتي الأولى نحو الأدب . يقول سوميخ . بدأت على يد شرارة المتوقد شاعرية وإبداعاً، الذي نصحني بلقاء الجواهري . محمد مهدي الجواهري . وكان الجواهري قد اعتاد الجلوس في مقهى معروف يمتلكه شخص اسمه (حسن عجمي).

قرأت "أخي جعفر" وقصائد أخرى للجواهري، فقد كان عظيماً بنظري يمتلك أدواته الشعرية التقليدية، ويمسك بقوة مفاتيح الشعر والفن الشعري، القديم والحديث في آن معاً.

ذهبت مع شراره إلى مقهى حسن عجمي وكان الجواهري يجلس وحيداً يُدخن ويشرب الشاي الثقيل.. اجتماعي بالجواهري أثار شهيتي للقراءة وقوى علاقاتي بالأدباء العرب وبالذات الشعراء منهم إلى درجة بِتُّ مهووساً بالشعر، وأستاذي شراره يوجهني ويأخذ بيدي.

اهتماماتي الأدبية كانت كل عوالمي، وترددي على مقاهي الأدباء أصبح جزءاً من برامجي ففي شارع الرشيد، وسط بغداد، يتجمع الكتاب كباراً وصغاراً، وهناك فتحت لي الآفاق الواسعة، لقد كانت بغداد نهاية الأربعينات شعلة متدفقة بالنتاجات الأدبية، ولحقت، ربما، بالقاهرة وبيروت.

بدعم من أستاذي محمد شراره بدأ يظهر اسم شاشون سوميخ على صفحات جريدتي "النديم" و"النبأ". لكن بعض الأصدقاء نصحوني باستخدام اسم فني فبدأت أنشر باسم "المنتصر".

تعرفت في أحد مقاهي بغداد على رائد الحركة الشعرية العربية الحديثة (بدر شاكر السياب)، وكان السياب قد وصل إلى العاصمة قادماً من البصرة منتصف الأربعينات من أجل الدراسة في مدرسة المعلمين العليا. وهناك انضم للحزب الشيوعي، لكن السياب اتهم الحزب الشيوعي . لاحقاً . بالانصياع لأوامر اليهود والصهيونيين.

"عزرا ونحميا" شعار حركة الترحيل الكبيرة لليهود من العراق إلى فلسطين، ومع هذا "الركب" رحل سامي ميخائيل، شمعون بلاص، شاشون سوميخ، لم تقم الحكومة وقتها بطردهم بل سنت تشريعاً وافق عليه البرلمان العراقي سمح لكل من يرغب بالهجرة من العراق بالخروج.. ولما لم يرحل العدد الكافي من اليهود تولى جهاز الموساد الإسرائيلي إرهاب اليهود وقتل بعضهم ليدب الرعب بينهم فيغادرون على وجه السرعة.

تولى عملية تنظيم وترتيب وتنفيذ الخطة عميل الموساد المعروف (شلومو هلل) وهو من اليهود العراقيين، نشر تفصيلات الخطة وترتيباتها منتصف الثمانينات في كتاب "الريح الشرقية" الذي نشرته (يدعوت أحرونوت) عندما كان (هلل) رئيساً للكنيست الإسرائيلي.

تضمنت الخطة أولاً تنفيذ عدة عمليات عسكرية ضد الكُنس اليهودية ومراكز تجمعهم وأماكن أعمالهم، في وقت كان عملاء الموساد يقومون بربط اليهود العراقيين بمؤسسات الحركة الصهيونية ويهيئون لهم وسائل خروجهم المأمونه (!!) خارج العراق.

على الصعيد السياسي أجرى (شلومو هلل) محادثات مطولة ومفصله مع (توفيق السويدي) رئيس الحكومة العراقية والسياسي ورجل الأعمال المعروف (صباح) بن نوري السعيد. وتم الاتفاق على خطة التهجير.. فبعد أن كانت تتم براً عن طريق الأردن وإيران وفيها يواجهون مخاطر الطريق، تم الاتفاق على ترحيل اليهود على متن طائرات إسرائيلية أو طائرات تستأجرها إسرائيل من مطار بغداد إلى مطار لارنكا في قبرص ومنها إلى مطار اللد في فلسطين. ولما سارت الأمور "دون

منغصات" بدأت الطائرات الإسرائيلية المملوكة لإسرائيليين تقل المهاجرين من مطار المثنى وسط بغداد إلى مطار اللد مباشرة. وبلغ عدد الذين تركوا العراق عام 1951 (120) ألف يهودي، أي أن البنية التحتية للدولة الصهيونية شكلت من اليهود العراقيين، وأول خطوات عدائية اتخذت انضمامهم إلى الجيش الصهيوني وتولي مناصب إعلامية وثقافية معادية للعروبة والعربية.



المؤتمر الدولي السنوي
التاسع والأربعون
للدراسات الآشورية

■ بقلم: د.فاروق اسماعيل ■

انعقد المؤتمر الدولي السنوي التاسع والأربعون للدراسات الآشورية في لندن (7- 11 تموز 2003م) بتنظيم المتحف البريطاني، والمعهد العالي للدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، والمدرسة البريطانية للآثار في العراق، والأكاديمية البريطانية، والمعهد البريطاني للآثار في أنقرة، وعدد من الجمعيات العلمية.

يعد هذا المؤتمر السنوي فرصة لالتقاء الباحثين من شتى دول العالم، وتبادل الخبرات والاستماع إلى نتائج البحوث الأثرية واللغوية والتاريخية الجديدة المتعلقة بمناطق الشرق القديم المختلفة. وقد تميز مؤتمر هذه السنة بالمشاركة المكثفة فيه، حيث وصل عدد المشاركين إلى أكثر من خمسمئة باحث ومهتم، وألقيت فيه /147/ محاضرة قصيرة، أعقبتها مناقشات موجزة، ورغم الأعباء الكبيرة المترتبة على هذه المشاركة المكثفة وفقت اللجنة التحضيرية المنظمة في تأمين ما يضمن سير أعمال المؤتمر بشكل دقيق منظم، حسب البرنامج المخطط.

تم في مساء اليوم السابق لبدء برنامج المؤتمر تقديم عرض مسرحي مبسط لملحمة جلجامش، كتبه أندري جورج أستاذ الكتابات المسمارية في جامعة لندن، وأخرجه ديفيد ريبون، ومثله عدد من الباحثين البريطانيين المعروفين وبعض الهواة.

وفي بداية اليوم الأول قدمت كلمات افتتاحية ترحيبية موجزة لكل من ماك جريجور مدير المتحف البريطاني، كولين بوندي عميد المعهد العالي للدراسات

الشـرقية والأفريقيـة بجامعـة لنـدن، دافيـد هـاوكنز الباحـث البريطـاني بالنيابـة عـن المشاركين، ثم بدأت أعمال المؤتمر التي توزعت في ثلاث قاعات، وقسمت إلى أربع أو خمس جلسات علمية يومية تضمنت كل منها إلقاء عدد من البحوث.

خصصت إحدى جلسات اليوم الأول للبحث في موضوع نهب التراث العراقي القديم ونتائجه؛ قدمت فيه إليزابيت ستون (أمريكا) نتائج عمل اللجنة التي تترأسها، وقامت بإجراء مسح ميداني للمواقع الأثرية والمتاحف في العراق خلال شهر أيار 2003م، ووصفت حالة المتحف العراقي في بغداد والمواقع الأثرية في جنوبي العراق بعد نهبها خلال الحرب الأخيرة، كما تحدث جون كورتيس (بريطانيا) عن مشاهدات بعثة المتحف البريطاني إلى العراق خلال شهر حزيران 2003م، ثم قدم عدد من المسؤولين العراقيين في الهيئة العامة للآثار والتراث في بغداد والموصل لمحة وصفية عن أحداث النهب الأثري التي حصلت في العراق. وقد نبه الجميع إلى هول الكارثة الإنسانية التي تسببت في فقدان قطع أثرية نفيسة تمثل معالم حضارية من تاريخ العراق القديم، ودعوا الجهات العالمية والحكومية والمؤسسات الثقافية إلى التعاون لتحسين الوضع وبذل الجهود المشتركة لإعادة المنهوبات.

وفي إطار الموضوع ذاته فوجئ المؤتمرون . في اليوم الأخير . بمشاركة الكولونيل البحري ماثيو بوجدانوس لتقديم تقرير شامل مفصل عن أحداث النهب في المتحف العراقي في بغداد، حيث بين بالصور حالة أقسام المتحف ومخازنه، وقدم أرقاماً هائلة من المسروقات، وأوضح أنه تم استعادة عدد منها، ولكن عدد المسروقات من مخازن المتحف ما زال بحدود عشرة آلاف وخمسمئة قطعة أثرية، وأشار إلى أنه تمت إعادة افتتاح المتحف في 2003/7/3م وما زالت اللجان تحقق وتدقق، وتبذل جهودها داخل البلاد وخارجها لإعادة المسروقات.

فيما يأتي نقدم عرضاً وتلخيصاً للبحوث التي قدمت في المؤتمر، وذلك بهدف تعريف القارئ بهذا النشاط العلمي وتنبيه الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى المعلومات المستجدة والموضوعات الجديدة ضمن إطار حضارات الشرق القديم، آثارها المادية والكتابية وتاريخها السياسي والحضاري.

كان المحور الخاص في المؤتمر بعنوان ((نينوى)) العاصمة الآشورية الأخيرة التي تضم أطلالها تلا كوينجق والنبي يونس في الضاحية الشرقية من مدينة الموصل، ويخترقها نهر خورز ليصب في دجلة المجاور.

كانت نينوى أهم مركز حضاري في شمالي بلاد الرافدين خلال الألف الأول ق.م، ولا سيما بعد أن اتخذها الملك الآشوري سنحريب (704ـ 681 ق.م) عاصمة له في أواخر القرن الثامن ق.م، كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت فيها منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي عن أعداد كبيرة من القطع الأثرية المتنوعة وعن سور المدينة وبواباتها ومعابدها وقصورها الملكية ومكتبتها الثقافية الرائدة، ونظراً لضخامة الموقع ومكتشفاته الكثيرة صار يشكل مجالاً خاصاً واسع النطاق ضمن اختصاص الدراسات الشرقية القديمة الذي يعنى بدراسة آثار الشرق القديم المادية والكتابية ولغاته وتاريخه السياسي والحضاري.

سنعرض بشكل موجز البحوث المقدمة في المؤتمر ضمن مجموعات متماثلة في موضوعاتها ومصادرها.

1 ـ آثار نينوى:

تعرضت بحوث كثيرة لآثار نينوى، إذ تحدث منهل جابر مدير متحف الموصل عن نتائج التنقيبات في تل النبي يونس وبوابة الإله نرجال وعرض صوراً وشرحاً لأهم المكتشفات المعمارية والفنية.

وتحدثت ديانا بيكفورث (أمريكا) عن بوابة خلزي في أقصى الجنوب الشرقي من الموقع، وعرضت نتائج تنقيبات جامعة بركلي هناك خلال السنوات 1987م ـ 1990م، وتعرض الباحثان العراقيان مؤيد سعيد دامرجي ودوني جورج يوحنا (المتحف العراقي في بغداد) لأهمية نهر خوزر والتحصينات الدفاعية الآشورية في مدينة نينوى، وتحدثت فرجينيا دانري (فرنسا) عن الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية في نينوى والتي يبلغ عددها فيها الأربعين من أصل أكثر من مئة مكتشفة في العواصم الآشورية، وبينت أنها ترمز إلى القوة والسلطة، وتابعت بدايات نشأتها وتطورها الفني، كما تحدث ب. شارفات (تشيكيا) عن أختام من نينوى تعود إلى حضارة نينوى (5) عثر عليها خلال تنقيبات تومبسون وملوان في الموقع سنة 1930م، وعرضت إريكا هونتر (بريطانيا) مجموعة طاسات تعويذية من نينوى عثر عليها خلال التنقيبات السابقة نفسها ومحفوظة في المتحف البريطاني بلندن، وقامت بمقارنتها مع نماذج مشابهة عثر عليها في آشور ونمرود.

وقدم يورغن بير (ألمانيا) دراسة تضمنت نظرات جديدة إلى قناة خنيس/ بافيان شمال شرقي الموصل /60/ كم، وهي تعد من أهم الإنجازات الآشورية التي أبدعت

في عصر الملك سنحريب في مجال الهندسة المائية، إذ كانت توصل الماء من المجرى العلوي لنهر جومل إلى نينوى ومحيطها، وقد نقشت على جانبيها على جدران الصخور منحوتات فنية عديدة، تمتلك .رغم حالتها الحالية السيئة .أهمية كبرى ضمن الأعمال الفنية التي تصور الآلهة ورموزها والحكام الآشوريين، وكانت ذات أغراض دعائية سياسية.

وقدم جيوفري تورنر (بلجيكا) بحثاً عن أرشيفات المتحف والمنحوتات النافرة في قصر الملك سنحريب في تل كوينجق استعرض فيها أعمال الموسم الثاني والرئيسي لتنقيبات لايارد في القصر ونتائجها، والدراسات المختلفة حول الموضوع ذاته، وعرض ملاحظات وأفكاراً ذاتية عنها.

2 ـ الجغرافيا التاريخية لمنطقة نينوى:

قدمت أربع دراسات أمريكية متميزة عن الجغرافيا التاريخية للمناطق المحيطة بنينوى، إذ تحدثت إليانور بريانس عن الاستيطان الريفي في منطقة نينوى، وأوضحت أن اهتمام الآشوريين لم يقتصر على مدنهم الرئيسية، بل شمل مراكز استيطان ريفية متفاوتة الأحجام، شهدت التمدن والرقي الحضاري. وتحدث مارك الطويل عن مسالك مدينتي آشور ونينوى اعتماداً على خرائط الأقمار الصناعية، وحدد أهمها في المناطق الداخلية من شمالي بلاد الرافدين وفي أطرافها وكيفية ارتباطها بالمناطق المجاورة والبعيدة، وركز على النماذج التي توصف في النصوص الكتابية بـ"الطريق الملكي"، وبين أن شبكة المواصلات الدقيقة كانت تسهل أمام الآشوريين تنفيذ حملاتهم العسكرية، وتنشط التبادل الاقتصادي والتثاقف. واعتماداً على معلومات الأقمار الصناعية أيضاً تحدث ياسون أور عن النظام المائي في منطقة نينوى وأكد درجة التطور الفائقة في هذا المجال خلال العصر الآشوري الحديث، وركز على جهود الملك سنحريب المتميزة في ذلك، وعرض مصورات مستمدة من الأقمار الصناعية والتصوير الجوي والبحوث الجيولوجية ونتائج تنقيبات جامعة شيكاغو سنة 1930م وما بعدها في منطقتي قناتي بافيان وشيروان. ودرس طوني ولكنسون التغيرات الطبيعية في منطقة نينوى بدءاً من أواسط الألف الثالث حتى أواسط الأول ق.م، وركز على الأنماط الأساسية لمظاهر تلك التغيرات، ومعايير مفهوم المدينة وتبدلها عبر الفترة التاريخية المذكورة، كما سعى البحث إلى الربط بين المعلومات المستخلصة من البحوث الثلاثة السابقة وتقييمها واستخلاص دور تطور النظام

المائي واتساع شبكة الطرق وتنوع نماذج الاستيطان الريفي في استمرارية وجود مدينة نينوى وأهميتها السياسية والحضارية.

3 ـ التنقيبات الأثرية في منطقة نينوى:

قدمت بحوث عن التنقيبات الأثرية في ستة مواقع أثرية قريبة من نينوى، فتحدث الباحث العراقي فاروق الراوي (بريطانيا) عن تنقيبات جامعة الموصل في مدينة تربيص (شريخان) الواقعة على بعد /8/ كم شمال غربي نينوى، والتي أنشأها الملك الآشوري شلمنصر الثالث (858ـ 824 ق.م) حيث كشف عن بيت للقيادة (بيت ريدوتي) ومعبدين للإلهين مس لم ونرجال، وقد كانت المدينة حاضرة مهمة لملوك السلالة الشركينية الآشورية، وعثر فيها على نقوش من عهد تلك السلالة، وعلى نسخة شبه كاملة من الرقيم الخامس من ملحمة إرّا وملك كل الديار. وبحثت إليونورا باباالاردو (إيطاليا) في عاجيات كلخو (نمرود) جنوب شرقي نينوى، وقدمت معلومات جديدة مستخلصة من نتائج تنقيبات جامعة تورينو الإيطالية في الموقع بين 1987م . 1989م، حيث عثر على نحو /1450/ قطعة فنية مصنوعة من العاج، وركزت على دراسة أسلوبها الفني والمشاهد البشرية والنباتية التي تصورها. وبحثت سوزان هربوردت (ألمانيا) في أسلوب إناء ذهبي فريجي من المدفن الملكي في نمرود لتوضيح سر وجوده هناك بعيداً عن موطنه فريجيا، وبيان فيما إذا كان مستورداً من هناك أم أنه تقليد أحد الحرفيين الآشوريين. كما قامت نواله المتوالي مديرة المتحف العراقي في بغداد بعرض نصوص كتابية من نمرود مكتشفة حديثاً. ووصف توماس هرتل (الدنمرك) محاولة إعادة بناء جديدة لبوابة موقع بلوات (قديماً إمجور إنليل، جنوب شرق نينوى) والتي تعود إلى عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث، وفي بوابة شهيرة بالحزم البرونزية التي تزينها، ومحفوظة في المتحف البريطاني، وقد طرح آراء جديدة في أسلوب الزخرفة ودلالاتها، مستفيداً من مضمون النقوش الكتابية الموجودة على البوابة وغيرها من كتابات عصر شلمنصر الثالث. وتكلم أوفه سيفرتسن (ألمانيا) على مظاهر معمارية في موقعي تبه جاورا (شمال شرقي نينوى) وتلول الثلاثات (غربي نينوى)، وهما موقعان مهمان من مواقع عصور ما قبل التاريخ (عصر العبيد . نينوى 5)، وقد ركز على المظاهر الشكلية المميزة والنواحي الوظيفية والرمزية.

كما تحدث كريتسيان كيبنسكي (فرنسا) عن التنقيبات في موقع جرى رش

(2001 . 2002م) غربي نينوى وقدم نتائجها الجديدة وصلتها بالسبر العميق الذي نفذ في نينوى.

4 ـ موضوعات أثرية فنية:

قمة موضوعات تعتمد معلوماتها على نتائج التنقيب الأثري والمكتشفات المختلفة، وقد تدخل في إطار تاريخ الفن، وأخرى تعتمد على ما يرد في النصوص الكتابية، إلى جانب المعطيات الأثرية، وقد ألقيت في المؤتمر بحوث كثيرة من هذين النوعين تتصل بمدينة نينوى وحضارتها، بلغت أكثر من عشرين بحثاً.

فمن الموضوعات الأثرية نذكر بحث زينب بحراني (أمريكا) عن رأس الملك، العنف والهيئة في الفن الملكي في نينوى الذي بين الرؤية الآشورية عن العنف، ولا سيما كما تظهر في منحوتة تصور معركة تيل نوبا، وفصلت في التطبيقات الآشورية في مجال الحرب. وعن موضوع مشابه تحدثت ريتا دولكه (إيطاليا) حيث عالجت تصوير "رأس العدو" في المنحوتات المكتشفة في قصور نينوى، ومن البحوث الطريفة بحث كارين بولنجر فوستر (أمريكا) عن الحدائق المعلقة في نينوى، وقد بينت فيه أن المناقشات المؤخرة لهذه المسألة تحدد مكانها في قصر سنحريب في مدينة نينوى، وأن السر المدهش فيها هو الابتكار الخلاق الذي أبدعه سنحريب لإيصال المياه من مسافات بعيدة، وأشارت إلى أن الرسوم التخطيطية الحديثة لها تقترح وجود شرفات جانبية مدكوكة وممرات مستندة إلى دعامات مسقوفة بأنواع من الشجر تبدو وكأنها مزروعة بشكل معلق في الأعلى، ويبدو أن سنحريب أبدعها بغرض توفير طابع جمالي متميز لقصره ومجالسه، وثمة صور فنية في النصوص الآشورية الحديثة تحاكي مظهرها الجمالي، وبشكل عام يمكن مقارنتها بمشاهد طبيعية في الفن الإسلامي الأندلسي.

وتحدث ستيفن لومسدن (الدنمرك) عن الخبرة في توظيف المساحة في تخطيط مدينة نينوى، وبين أن سنحريب قدم إبداعات جديدة في تخطيط مدينته الجديدة تعبر عن رقي حضاري، وأنه استغل المساحات المتوافرة بشكل دقيق، ونجح في استغلال المصطبة النهرية في الجزء الشرقي من سور المدينة.

وتكلمت شيكاكو استر وتنابه (اليابان) على أسلوب التصوير التسلسلي في المنحوتات الفنية الآشورية المتأخرة التي عثر عليها في نينوى، وهي تعتمد على مبدأ تكرار المشاهد معدلة لتصوير مراحل مختلفة من حيث أحداث الحكاية التي تريد

توثيقها بالتصوير وأزمانها، وبينت أن أقدم نماذج هذا الأسلوب يعود إلى زمن توكولتي نينورتا الأول (1243 . 1207 ق.م) من ملوك المملكة الآشورية الوسطى، ولكنها شاعت أكثر في زمن آشور بانيبال، وقد أوضحت مقولاتها من شاهدين هما منحوتة صيد الأسود ومعركة تيل توبا.

وقدمت ديانا شتاين (ألمانيا) بحثاً مميزاً عن القرص المجنح والشجرة وبينت وجود دلائل تشير إلى العمق التاريخي الحضاري لهذين الرمزين الآشوريين، تعود إلى العصر الحجري القديم، وأوضحت أن الجمع بينهما يهدف إلى التعبير عن رموز وأحلام إمبراطورية، ولذلك شاع الاهتمام بها في فنون العصر الآشوري الحديث أكثر من غيره، وتعرضت كلاوديا فيشر (ألمانيا) لموضوع الملوك والكؤوس في الفن الرافدي منذ عصر سلالة أور الثالثة، وبينت أن المشهد التصويري هذا يمثل لغة مجازية وأسلوباً رمزياً يهدف إلى إيصال معلومات وفكر عن طريق الرمز، مكملاً بذلك التعبير عن الإيديولوجيا السياسية في النقوش الملكية والرمز السلطوي في الأختام الأسطوانية، إنه مشهد يدلل على وجود صلة وثيقة بين الإيديولوجيا والدعاوة ويؤكد حرص الملوك على نشر أفكارهم وهيبتهم.

وقدم إبراهيم وينيتسر (أمريكا) دراسة تحليلية عن مشهد الحديقة في أعمال آشور بانيبال الفنية وربطها بما يرد في كتاباته عن الموضوع ذاته، حيث تصور بالكلمة عناصر المشهد مصحوبة بتلميحات إلى أفعال جنسية وألحان هادئة. وتحدثت اليزابيت فونان (فرنسا) عن ثلاثة تماثيل صغيرة آشورية من مكتشفات باول إميل بوتا في خورس آباد 1843 . 1844م، أهداها الملك لويس فيليب سنة 1847م إلى متحف اللوفر بباريس.

وتحدثت بياته سلجه (ألمانيا) عن منحوتات آشورية من نينوى محفوظة في متحف برلين كانت قد نقلت سنة 1855م إليها من القصر الجنوبي الغربي لسنحريب في تل كوينجق، وهي تصور مشاهد تتضمن رماة السهام وحاملي الرماح وموسيقيين وجنود الحامية الملكية، ويعتقد أنها كانت مركبة معاً في مشهد عام وتربط بين القصر ومعبد الآلهة عشتار، كما قارنتها بمنحوتات مشابهة لتوضيح سياقها الأثري التاريخي.

وقدم اليسون كارمل توماسون (أمريكا) دراسة عن برونزيات الملك سنحريب التي كانت مخصصة لأغراض تزيينية وتعبر عن مدى غنى الخزانة الملكية، وفصل

الحديث عنها لبيان نظرة الآشوريين إلى العالم المادي والمواد الثمينة.

5 ـ نينوى والمراكز الحضارية الأخرى:

تحدث جوليان رياده (بريطانيا) عن نينوى في العصر البابلي القديم وركز على البقايا المعمارية والنقوش الكتابية وأعمال فنية متفرقة عثر عليها في منطقة معبد الآلهة عشتار، وذلك لوضع تصور عام عن تاريخ مدينة نينوى خلال ذلك العصر.

وألقيت مجموعة بحوث تناولت العلاقات بين نينوى ومراكز حضارية مشهورة في بلاد الرافدين وخارجها، فقد بحث الان تينو (فرنسا) في العلاقات بين آشور ونينوى، ودرس مارك دي ميروب (أمريكا) العلاقات بين بابل ونينوى، وتعرض باول ألين بوليو (أمريكا) لموضوع من نينوى إلى أوروك وتتبع مظاهر استمرار الثقافة الآشورية في بلاد بابل حتى العصر الهلنستي، كما يتضح في التقاليد الكتابية الأدبية، وعرض أمثلة تدلل على ذلك.

وتحدث ماتيس دي يونج (هولندا) عن نينوى والقدس، وعقد مقارنة بينهما لاستخلاص صورة المدينة الملكية في ضوء كتابات القرن السابع ق.م والتوراة. كما تحدثت ماريان فلدمان (أمريكا) عن مدينتي نينوى وطيبة العاصمة المصرية القديمة، وفصلت الحديث عن العلاقات الآشورية المصرية خلال القرن السابع ق.م من الناحيتين الفنية والسياسية، وعرضت مشابهات في منحوتة آشور بانيبال التي تصور معركة تيل توبا والمنحوتة الصخرية لأسرحدون على نهر الكلب في لبنان.

6 ـ نينوى في موضوعات فكرية من النصوص الكتابية:

أبرزها موضوعات فكرية دينية، فقد بحث محمد علي أتاش (أمريكا) في العالم السفلي في التصور الفكري النينوي كما ينعكس في الأعمال الأدبية، ولا سيما أسطورة "نزول أمير آشوري إلى العالم السفلي".

وتعرضت ثلاثة بحوث لمظاهر الآلهة عشتار المعبودة في نينوى وسائر مناطق الشرق القديم، منها بحث ف.ج. لامبرت (بريطانيا) عن عشتار مدينة نينوى الذي أوضح مظاهرها ونعوتها في ضوء نص شعائري ديني يتضمن في مطلعه سلسلة من النعوت التي تعبر عن مظاهر شخصيتها ووظائفها الإلهية. وكذلك بحث بربارا بوتر (أمريكا) عن عشتار نينوى وعشتار أربيل في ضوء نص أدبي يمثل ترتيلة دينية للملك آشور بانيبال عثر عليها في نينوى، وبينت أن وجوه الاختلاف بين

الآلهتين واضحة، وإن كانت هناك خصائص مشتركة. كما بحثت دوريس بريشل (ألمانيا) في ملامح شعائر عبادة الآلهة عشتار نينوى في ضوء المصادر الحثية التي تؤكد انتشار عبادتها إلى بلاد الأناضول منذ القرن الخامس عشر ق.م، وانضمامها إلى مجموعة الآلهة المعبودة هناك، ولكن مرور الزمن لم ينس الحثيين أصولها الغريبة عنهم، واستعرضت الباحثة مظاهر شعائر عبادتها بعيداً عن موطنها الأم.

ومنها أيضاً بحث ست ريشاردسون (أمريكا) عن النبوءة والإيمان في نصوص من نينوى الذي يؤكد أن المظاهر التطبيقية العملية للتنبؤات والعرافة وجدت منذ اقدم العصور ضمن الممارسات التقليدية الشعبية والدينية، واعتمدت غالباً على الملاحظة. وبين أن نصوص العصر البابلي القديم من ماري وبابل تظل أفضل النصوص تصوراً للممارسات التطبيقية لها بهدف إيجاد إمكانية لسرية المعلومات واستخدامها كلغة خاصة للأسرار التجسسية والدبلوماسية.

7 ـ في الحضارة الرافدية ـ الآشورية:

ألقيت بحوث تناولت مسائل تتعلق ببلاد آشور، وأخرى عامة تتعلق بحضارة بلاد الرافدين بشكل عام، وتطرقت إلى مجالات حضارية متنوعة.

ففي مجال الأدب تحدث ياكوب كلاين (أمريكا) عن عمل أدبي سومري معروف بعنوان الإنسان وإلهه يعالج مسألة الإنسان المعذب. وتطرق إلى الآراء المختلفة في تحديد الجنس الأدبي له، وعارض أن يكون العمل الأدبي يمثل قصيدة شعرية في الحكمة أو مرثية شعائرية، بل هو نص عام في أغراضه، ومستقى من الحياة اليومية العملية، ولذلك تظهر فيه ملامح متنوعة، وأشار إلى أنه يعد نشراً جديداً للعمل الذي نشره منذ زمن طويل (1955م) الباحث صموئيل نوح كريمر،

وفي مجال الكتابة والمكتبات قدمت عدة بحوث متميزة، إذ تحدث ألاسدير ليفينجستون (بريطانيا) عن آشور بانيبال ومهارة الكتابة، وبين دور آشور بانيبال المتميز في رعاية فن الكتابة وإنشاء أضخم مكتبات الشرق القديم وأهمها، ثم ركز على ادعائه في إحدى كتاباته بأنه تعلم الكتابة على الألواح الطينية في مقتبل العمر، وكان يجيد القراءة والحساب، بل يقرأ رقماً عسيرة الفهم دونت باللغتين السومرية والأكدية، وأورد طائفة من الشواهد الكتابية المختلفة التي تدلل على أن آشور بانيبال كان مبالغاً في ذلك الادعاء.

وقدم جرانت فرام (كندا) وأندري جورج (بريطانيا) بحثاً مشتركاً عن المكتبات الملكية في نينوى، شواهد جديدة على إنشائها وعرضا نصين كتابيين غير منشورين سابقاً عن جهود آشور بانيبال في هذا المجال. وعرض إكارت فراهم (أمريكا) ملاحظات على حواش توضيحية من مكتبة آشور بانيبال في نينوى، فقد كشف في المكتبة عن مئات من الرقم تتضمن نصوصاً تمثل حواشي تفسيرية لنصوص متعلقة بالنبوءات والتنجيم والأدب والدين، ورأى الباحث أنها دونت بتوجيه شخصي من آشور بانيبال إلى الشرّاح بغية تحقيق فهم أفضل لتلك النصوص، ولعل ذلك يتصل بزعمه بأنه كان يقرأ رقماً عسيرة الفهم!!

وتحدث هرمان فانستيفوت (هولندا) عن مستوى مهارة الكتابة المسمارية في نينوى. وقدم جرد شتاينر (ألمانيا) بحثاً بعنوان مكتبة آشور بانيبال والأصوات اللغوية الصامتة القابلة للإدغام في اللغة السومرية، حيث بين وجود جداول معجمية في تلك المكتبة تورد ألفاظاً سومرية بصيغتين، ويتصل ذلك بأسلوب لفظي خاص للألفاظ السومرية شاع خلال عهد آشور بانيبال ومراحل أخرى من الألف الأول ق.م.

أما الحديث عن المكتبات القديمة ولا سيما مكتبة آشور بانيبال ومشاريع إعادة إحيائها، وتصنيف الكتابات المسمارية باستخدام الحاسوب، فقد كشف عن اهتمام واسع وتنافس إبداعي في هذا المجال، ولعل عناوين البحوث وحدها كافية لبيان ذلك، وهي:

جانيت فينكه (بريطانيا): مشروع المتحف البريطاني (مكتبة أشور بنيبال).

كريستوفر ووكر (بريطانيا) وعلي ياسين أحمد (جامعة الموصل): مشروع مكتبة آشور بانيبال المشترك بين المتحف البريطاني وجامعة الموصل.

إرفينج فينكل، جون تايلور (بريطانيا): مشروع الكتابة المسمارية الرقمية Digital.

مادين فيتز جيرالد (أمريكا): مقدمات لإيجاد مكتبة رقمية للكتابات المسمارية.

مانويل مولينا (إسبانيا): برنامج كومبيوتري للنصوص السومرية الحديثة.

جرفرد موللر (ألمانيا): برنامج كومبيوتري لحفظ الرقم الكتابية المسمارية بأبعادها الثلاثة.

دين سنيدر (أمريكا): مشروع حمورابي الرقمي للرقم المسمارية.

ميشائيل بورتر (أمريكا): خريطة رقمية للشرق القديم.

وقد عرض أصحاب هذه المشاريع المتطورة شروحاً تفصيلية نظرية وتطبيقية لها، وتلتها نقاشات مفيدة تنبه إلى أن استخدامات الحاسوب في مجال حضارات الشرق القديم يتطور بدرجة كبيرة.

وقدمت بحوث عدة في مجال علم الرياضيات لدى القدماء، حيث تحدثت إليانور روبسون (بريطانيا) عن مكانة علم الرياضيات في بلاد آشور وبينت أن جذور الرياضيات تعود إلى حضارات العراق القديم، ولم يكن تطور هذا العلم في بلاد آشور أقل مكانة من التطور الهائل في بلاد بابل (جنوبي العراق). وتحدث ج. فريبرج (السويد) عن نصوص مسمارية جديدة في الرياضيات موجودة ضمن مجموعة شوين في المتحف الوطني النرويجي وتبلغ أكثر من /300/ رقيم، وعرض صوراً لها واستنساخات يدوية، وعرف بها بشكل عام.

كما عرض دونجان ملفيل (أمريكا) مضمون نص رياضي من سوسا يعود إلى العصر البابلي القديم، ويعالج تكوين دائرة مضلعة القعر. وقدم ماتيو أوسندريفر (ألمانيا) بحثاً عن بعض ملامح نظرية دوران القمر في العصر البابلي المتأخر، وبين وجود إشارات في نصوص العصر إلى منهجين أساسيين لتحديد مدة دوام السنة وعلى فهم القدماء للمدى الزمني بين غياب أو ظهور الشمس وغياب أو ظهور القمر.

وفي مجال الطب والسحر قدمت ثمانية بحوث تناولت المعارف الطبية لدى القدماء والنصوص المسمارية التي تعبر عن ذلك، وهي:

آنا أتيا، جيلز بويسون (فرنسا): التراث الطبي في الدراسات المسمارية الآشورية.

ارفينج فينكل (بريطانيا): الطب البابلي القديم في أور.

مرخام جيللر (بريطانيا): نصوص طبية عن أمراض الكلية والمستقيم من مدينة آشور.

توماس ريشارد كمرر (إستونيا): الأمراض الوبائية في الكتابات المسمارية.

جوآن سكورلوك (أمريكا): من إساجيل كين أبلي إلى أبقراط.

نيلز هيسل (ألمانيا): قراءة النصوص المسمارية وتحليلها بعد أكثر من قرن

على جهود فليكس فون أوفيليس في "الطب المسماري، مدخل إلى مجموعة كوينجق الطبية".

دانيل شفمر (ألمانيا): تعويذات ضد السحر المؤذي في آشور.

سنتيا جان (بلجيكا): التعويذات في العصر الآشوري الحديث.

وفي مجال الحرب والحياة العسكرية تحدث امي بارون (كندا) عن التجهيزات العسكرية في العصر الآشوري الحديث كما صورت في المنحوتات الجدارية التي كشفت في القصور الآشورية في مواقع نينوى ونمرود وخورس آباد.

وتحدث نجل تليس (بريطانيا) عن العربات الحربية في العصر الآشوري الحديث حيث ألقى نظرة عامة شاملة على الشواهد المتوافرة في اللقى الأثرية والنصوص الكتابية المتعلقة بالعربات، بغية توضيح كيفية تصميمها وأسلوب صناعتها ومجالات استخدامها. وقدمت ماريا جابريللا ميكالي ودافيد ندالي (إيطاليا) بحثا عن تشكيل معسكرات الملك سنحريب ووظائفها الاستراتيجية ومدى الفكر السياسي فيها حللا فيه مشاهد المعسكرات وعناصرها المعمارية اعتماداً على المعطيات الأثرية، وربطا ذلك بأخبار المرويات الكتابية، واستخلصا الوظائف والأساليب التكتيكية الحربية، وقارناها بمثيلاتها في العصر الآشوري الحديث. وتحدث كريستوف أهلينجر (سويسرا) تحت عنوان من المعركة إلى الأنصاب، من الأنصاب إلى التاريخ: عن سنحريب في مدينة لاخيش، ورأى أن المشاهد المصورة في المنحوتة التي تصور المعركة ليست تصويراً مباشراً انطباعياً، بل يعتمد على أخبار مدونة عنها أو كانت متناقلة بين الناس شفهياً، وأن الاهتمام الفني بحدث النصر على لاخيش، رغم أنها لم تذكر في حوليات سنحريب الكتابية، يعود إلى أنها كانت تشكل الممر العسكري إلى العاصمة السياسية.

وتحدث شتيفان هاورز (ألمانيا) عن القبور والنظام الاجتماعي في مدينة آشور خلال العصر الآشوري الحديث، اعتمد فيه على دراسة أشكال نحو /1300/قبر، عثرت عليه البعثة الألمانية المنقبة في آشور (قلعة الشرقاط) تعود إلى العصر الآشوري الحديث، وسعى إلى الربط بينها وبين ما ورد في النصوص الكتابية عن النظام الاجتماعي والأسري آنذاك. كما تحدث ميركو نوفاك (ألمانيا) عن برامج تخطيط المدن الآشورية في آشور ونينوى وغيرهما، وعرض الخصائص والمظاهر العامة لها، وقارن بين الأساليب المختلفة.

وقدم مسيمو كولترارو (إيطاليا) بحثاً بعنوان الرموز الخفية للانبعاث، دراسة في الصلات الفنية بين بلادي إيجيا والرافدين بين أن هناك شواهد أثرية على تلك الصلات، ولكنها قليلة، وركز في توضيحها على قطع زجاجية من العصر البرونزي المتأخر عثر عليها في ثوريكوس وكاكوفاتوس (اليونان) مزينة بنجوم تذكر بالرموز الفنية للآلهة عشتار وتظهر تشابهاً مع أعمال فنية رافدية.

وتحدثت إليانور جورالنيك (أمريكا) عن أنماط المنسوجات في العصر الآشوري الحديث، وهي معروفة بشكل أساسي من خلال الأعمال الفنية الحجرية والبرونزية والعاجية والرسوم الجدارية الملونة، وتتبعت الباحثة تطور أسلوب زخرفة المنسوجات عبر العصور، وبينت تطور استخداماتها ووظائفها، وأن مدينة نينوى بالتحديد شهدت تنوعاً كبيراً في أساليب التزيين الفنية التي تركت تأثيرها في سائر مناطق الشرق القديم وكذلك في اليونان.

وقدمت شيري ماك جريجور (أمريكا) بحثاً بعنوان نساء موسيقيات في بلاد آشور، شواهد كتابية وبصرية درست فيه مشاهد في منحوتات القصور الملكية وفي الأعمال العاجية تظهر انتشار تقاليد موسيقية رسمية وشعبية ودينية، ووجود محترفات تمتعن بمكانة متميزة عالية، وبينت أن الحفلات الموسيقية كانت تقام لدى الاحتفال بانتصارات والمناسبات الملكية والدينية وأداء شعائر المعابد.

8 ـ في حضارات المناطق المجاورة:

نعني بذلك البحوث التي تحدثت عن حضارات المناطق المجاورة لبلاد الرافدين أو التي تعد امتداداً لها، وسنقسمها إلى أربع مجموعات وفق التقسيم الجغرافي.

آ ـ سورية:

حظي موقعا قطنا (تل المشرفة، شمال شرقي حمص) وتيل برسيب/ مسواري (تل أحمر على الفرات، جنوبي جرابلس) باهتمام كبير متميز، وقدمت بحوث عديدة تناولت الآثار المكتشفة في الموقعين.

قدم ماركو ياموني (بريطانيا) بحثاً عن فخار العصر البرونزي المتأخر في قطنا، وصلته المحتملة بالفخار الميتاني عرض فيه نتائج التنقيبات الإيطالية (المشتركة)، وركز على القصر الملكي والقطع الفخارية التي تظهر تشابهاً مع الفخاريات المصنوعة وفق الأسلوب الميتاني، وأكد على أن المكتشفات عامة وتقدم إضافات جديدة إلى معلوماتنا عن العصرين البرونزي الوسيط والمتأخر. وتحدث

ميركو نوفاك (ألمانيا) عن قصر قطنا والأرشيف الملكي، ووصف وظائف القصر ومظاهره المعمارية، وبين أنه كان من أضخم المباني في الشرق القديم خلال الألف الثاني ق.م، واستعرض مكتشفات كثيرة عثر عليها في القصر، أبرزها طبعات أختام أسطوانية ذات نوعية عالية ونصوص كتابية مسمارية تبين اسم ملك المدينة إدانا الذي عاصر الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (1380 . 1354 ق.م)، وقدم ميشيل المقدسي (سورية) بحثاً عن المبنى الآرامي في مشرفة ودماره في نهاية القرن الثامن ق. م، وصف فيه الخصائص المعمارية للمبنى واستخداماته الوظيفية، وعرض نتائج التنقيب السوري فيه، كما تحدث بفلتسنر (ألمانيا) عن المدفن الملكي في قطنا وشرح أسلوبه المعماري وتكوينه وموجوداته، وقارنه بمدافن أخرى من الفترة نفسها.

أما موقع تيل برسيب/ مسواري فقد تناولت أربعة بحوث أيضاً جوانب من مكتشفاته، وأهمها نصب لوفي حديث لإله العاصفة وصفه جوي بونينس (بلجيكا) من الناحية الفنية، وبين أنه مصنوع من حجر البازلت، ويصور إله العاصفة في مظهره المألوف في الأعمال الفنية، ويشبه في تفاصيله الأنصاب الأناضولية والآشورية، ويعود إلى نحو 900 ق.م، أما ج.د. هاوكينز (بريطانيا) فقد درس النص الكتابي المدون على النصب، وهو مكتوب بالكتابة التصويرية (الهيروغليفية) اللوفية، ويتألف من /34/ فقرة، ويتحدث عن انتصارات الملك حمياتا على الأعداء، وأوضح أن الموقع حمل اسمين، أولهما مسواري، ثم تيل برسيب في العصر الآشوري الحديث، وأن أسماء ملوكه ربما تكون آرامية في صياغة لوفية.

وتحدث مارتين ماكينسون (فرنسا) عن الرسوم الجدارية في تيل برسيب، تاريخها وأسلوبها الفني وقارنها بشواهد مماثلة مكتشفة في القصور الآشورية، وحلل أسلوبها التشكيلي الفني، ودرس المشاهد الحربية المصورة وربطها بأحداث مذكورة في حوليات ملوك السلالة الشركينية الآشورية، كما تحدثت فرجينيا فرادي (فرنسا) عن استخدام المعادن في تل أحمر، وركزت على تقديم وصف لأعمال التنقيب في الموقع خلال موسم سنة 2001م، ولا سيما في غربي التل، حيث عثر على مشغل لتصنيع المعادن.

وثمة بحوث متفرقة عن مواقع سورية أخرى، فقد تحدثت نيلي تسيجلر (فرنسا) عن احتلال شمشي أدد الأول مدينة نينوى ومناطق نوروجوم المحيطة بها في ضوء نصوص من أرشيف ماري، وذلك في أواخر فترة حكمه، وقدم تيموتي هاريسون

(كندا) بحثاً عن كونولوا، كلاني والوجود الآشوري الحديث في تل طعينات (سهل العمق) ذكر فيه أن أقدم إشارة من العصر الآشوري الحديث إلى مدينة كونولوا ومملكة بتينا/ أنقي تعود إلى القرن التاسع ق.م، ضمن حوليات الملك آشور ناصربال الثاني، ثم تستمر الإشارات خلال القرن التالي حتى سنة 738 ق.م حيث قام الملك الآشوري تجلت فليسر الثالث بحملته إلى سورية، وهو يذكر في حولياته أنه دمر مملكة أنقي واحتل كونولوا وضمها إلى مناطق سيادة الولاية الآشورية كلاني، وأكد الباحث أن دراسة أخبار كونولوا لا تدع مجالاً للشك في أنها موجودة في تل طعينات في سهل العمق، وقد جرت تنقيبات قديمة أمريكية في الموقع 1930م، استؤنف التنقيب فيه من جديد.

وتحدث هارتموت كونه (ألمانيا) عن فترة ما بعد العصر الآشوري الحديث، اعتماداً على مكتشفات موقع دور كاتليمو (تل الشيخ أحمد، شمال شرقي دير الزور)، وبين أن مكتشفات الموقع الأثرية والكتابية تقدم معلومات مهمة عن الفترة القصيرة التي سبقت سقوط نينوى وانهيار الإمبراطورية مباشرة، وما بعدها بقليل (أواخر القرن السابع ق.م)، وركز في البحث على المعلومات الأثرية عن فترة ما بعد انتهاء السيادة الآشورية في مناطق دور كاتليمو، وصلتها بالأوضاع في بلاد آشور المركزية.

وقدم باول لويس فان برج (بلجيكا) بحثاً عن الآثار والفنون الصخرية في نجد الحمة (محافظة الحسكة) عرض فيه نتائج مسح أثري أجراه هناك أظهر سلسلة طبقات حجرية متراكمة، ولا سيما عند قريتي خشام وكفرى، وأكثر من /2200/ منحوتة صخرية تمثل أشكالاً ذات هيئات حيوانية، وكذلك عثر على فؤوس ورماح.. وغيرها من اللقى التي يتراوح تاريخها بين أواخر الألف الرابع ق.م والقرن الثالث الميلادي.

وثمة موضوعات من الحضارة السورية بحثت اعتماداً على نصوص كتابية، كما في بحث شتيفان ياكوب (ألمانيا) عن سمسم من خربة (تل خويره) إلى نينوى، وبحث يانا ميناروفا (تشيكيا) الفينيقيون في أبو صير.

ب ـ تركيا:

اقتصرت البحوث المتعلقة بتركيا على آثار مناطق دجلة وشرقي الفرات، وكانت معدودة. تحدث فكري كولاكوغلو (تركيا) عن منحوتات من العصر الآشوري الحديث

من منطقة سانلي أورفا، عثر عليها بين 1998- 2001، في المواقع: محمد خان، أصلاني، تل حنطة، كاب، حاجي جوز، وعرض صوراً توضيحية لها.

وقدم يسوس جل فونتسانتا (إسبانيا) تقريراً عن التنقيبات الأثرية في رضوان تبه على نهر غرزان سو الذي يرفد دجلة، قرب حصن كيف، وتنفذها بعثة تركية تشيكية إسبانية مشتركة، بين أن الموضع يضم آثاراً يمتد تاريخها بين الألف الرابع وبدايات الألف الثاني ق.م. كما قدم جون ماك جينيس (بريطانيا) تقريراً عن التنقيبات في تل زيارت بين باطمان ودياربكر، وبين اعتقاده بأن الموقع يضم أطلال مدينة توشخان التي كانت مركزاً لمقاطعة آشورية هناك.

ج ـ إيران:

كاترين دي دراف (بلجيكا): **الفترة الانتقالية بين عصر سلالة أور الثالثة والعصر البابلي القديم في سوسا.**

ريوشي كونتاني (اليابان): **سيوف جديدة من شمال غربي إيران من العصر الآشوري الحديث.**

د. ت. بوتس (استراليا): **بحوث أثرية جديدة في المناطق العليا من بلاد فارس.**

د ـ الخليج العربي:

فيوريللا إبوليتوني (إيطاليا): **تماثيل الألف الثالث ق.م في البحرين.**

بيتر ماجي (أمريكا): **التجارة الخارجية بين مناطق الخليج العربي والإمبراطورية الآشورية.**

9 ـ بحوث عن عصر سلاسة أور الثالثة (2112 ـ 2003 ق.م):

ألقيت مجموعة بحوث تناولت موضوعات تاريخية وحضارية من هذا العصر، وركزت على الجوانب الاقتصادية، نظراً لأن القسم الأكبر من كتابات العصر تبحث في ذلك، والبحوث هي: بنيامين ستودفنت هكمان (أمريكا): القوى العاملة في مدينة أوما خلال عصر سلالة أور الثالثة.

ناتاليا كوسلوفا (روسيا): **ألقاب القوى العاملة في مدينة أوما خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

تونيا شرلاخ (أمريكا): دراسة **في ملامح النظام الضريبي خلال عصر سلالة**

أور الثالثة.

مغنوس ويدل (أمريكا): **القروض في مدينة أور خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

ويليام هلو (أمريكا): تأريخ **الأيام خلال عصر سلالة أور الثالثة.**

ب. ماندر، ف. بومبونيو، ف. أجنستينو (إيطاليا): **دراسة في نصوص السفراء من عصر سلالة أور الثالثة.**

بيوتر ميشالوفسكي (أمريكا): **القوة والشهرة، التصوير الملكي الذاتي في** عصر **سلالة أور الثالثة.**

ميشائيل موللر كاربي (ألمانيا): **طاسة الملك شوسين، نقش ملكي جديد من عصر سلالة أور الثالثة.**

فالتر سلابرجر (ألمانيا): مدفن **الملك شوسين في مدينة أور.**

نيكولاس فاندر روست (بلجيكا): **النظام الجغرافي الإداري الزراعي في** منطقة **أوما.**

10- بحوث لغوية:

ماريا ياكوبوفيتش (أمريكا) الأصوات الصفيرية في الآشورية . البابلية.

جوردون وايتاكر (ألمانيا): **الأصوات في لهجة إميسال السومرية، وفق** الشواهد **المكتشفة في نينوى.**

ستيف تيني (أمريكا): معجم ب**نسلفانيا للغة السومرية.**

ايفا فون دسو (أمريكا): في لغة **مراسلات العمارنة الكنعانية.**

فان در فستهويتسن (جنوب **أفريقيا): قراءة جديدة للرسالة /186/ من** مراس**لات العمارنة.**

11 ـ موضوعات متفرقة:

آنا مسخي (تركيا): حضارة **العبيد وأصلها الكارتفلي الجورجي، دراسة** لغوية **حضارية مقارنة.**

ماركو بونيشي (إيطاليا): دراسة **في (قائمة أسماء ومهن) سومرية من** عصر فجر **السلالات الثالث.**

ستيفن هولوي (أمريكا): **صورة نينوى في أمريكا خلال القرن التاسع عشر الميلادي.**

ريجينا هايلمان (ألمانيا): **تصوير التخيلات الشرقية والتنقيبات في نينوى في بواكير الأعمال السينمائية (مع عرض الفيلم الإيطالي القصير: ملكة نينوى، من إنتاج سنة 1911م).**

12 ـ ملصقات جدارية:

تناولت بالصور والشروح موضوعات معينة، علقت في الممرات الموزعة بين قاعات المحاضرات في المتحف البريطاني، وهي:

روبرت كارتر (بريطانيا): **الملاحة في الخليج العربي خلال عصر العبيد.**

ستيفاني دلي (بريطانيا): ال**حدائق المعلقة في نينوى.**

شتيفان هاوزر (ألمانيا): **البدو والحضر، شمالي بلاد الرافدين خلال العصرين الأرساكيدي والساساني.**

جرولد كوبر، دان سنيدر (أمريكا): **تخزين العلامات الكتابية المسمارية في الحاسوب.**

أخيراً يمكن القول إن بحوث المؤتمر ـ بشكل عام ـ تمتعت بمستوى علمي عال ودرجة كبيرة من الدقة، وشملت معظم الجوانب المتعلقة بحضارة نينوى والحضارة الآشورية بشكل عام، واتسع نطاقها ليشمل المناطق الحضارية المجاورة، ولا شك في أن نشر المجلد الخاص ببحوث المؤتمر ـ كما جرت العادة ـ سيضيف إلى مكتبة الدراسات الشرقية القديمة جهداً علمياً متميزاً لا غنى للباحثين عنه.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤتمر السنوي القادم (الخمسين) سيعقد في دولة جنوب أفريقيا، في مطلع شهر آب 2004م، وسيكون محوره الخاص هو: الحيوان والنبات في الشرق القديم، وذلك بدعوة من قسم الحضارات الشرقية القديمة والكلاسيكية في جامعة جنوب أفريقيا ـ بريتوريا.



Foreign Literature Quarterly, no.116
Autumn 2003, Twenty Eighth year

Contents

9- The 49th International Annual Conference for Assyrian Studies, by Dr. Farouq Ismael.
10- Juste Avant la Guerre? Comment Protége L' Archéologie en Iraq, by: Jonne Farchakh, tr. By Abboud Kassuha.
11- Archaeologists Charge US with "Crime of the Century", from "Larouche" Electronic Magazine, tr. By Rasha Haddad.
12- Foreign & Arab Eyewitnesses Writing the History of Plundering the Iraqi Monuments, Ed. By Huda Antiba.



الآداب الأجنبية، العدد 116،خريف 2003
السنة الثامنة والعشرون

المحتويات :

❑❑❑